جمرات من عنب

الأسير/ جمال عبد الفتاح الهور

مكتب اعلام الاسرى .

جمرات من عنب/ مكتب اعلام الأسرى. ـ غزة: مكتب اعلام الاسرى، 2015 .

127 ص،20.x14.5

تمت الفهرسة في مكتبة وزارة الثقافة

رقم الإيداع 2015/198

جمرات من عنب

صفحات من الوفاء يرويها

الأسير/ جمال عبد الفتاح الهور

مذكرات

جميع حقوق المؤلف محفوظة لدى دار الكتب الوطنية والمكتبات بوزارة الثقافة رقم 2015/198م بتاريخ 2 /جمادي الثاني/1436 هـ - 22/مارس/2015م ، ولا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه أو تسجيله بأية وسيلة، أو تصويره أو ترجمته دون موافقة خطية مسبقة من المؤلف،

ومن يخالف ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية أمام القضاء ©

مكتب إعلام الأسرى

مؤسسة إعلامية ناطقة باسم الأسرى داخل سجون الاحتلال، ينبثق عنها عدد من مراكز الدراسات، والمواقع الإعلامية، وإذاعة محلية، ويساهم في التفعيل الإعلامي لقضية الأسرى من خلال تسليط الضوء في وسائل الإعلام المختلفة على قضايا الأسرى بشكل يومي، والاستمرار على رصد الانتهاكات والاعتقالات.

الأهداف:

1- **تفعيل انتاج الدراسات والأبحاث الخاصة بالأسرى.**
2- **التفعيل الإعلامي لقضايا الأسرى على مختلف الأوجه.**
3- **تغذية المكتبة المرئية بمواد تجسد قضية الأسرى.**
4- **التعاطي مع قضية الأسرى بشكل يومي لا موسمي.**

إهـداء

إلى والدي

الذي لم تمنحني الحياة للتعرف إليه.. رحمه الله

إلى والدتي

الغالية التي سهرت الزمان من أجلي

إلى زوجتي

الكريمة التي صبرت على الفراق سنيناً طويلة، ولا زالت

إلى ولداي

الذين حرمهما الاحتلال دفء حناني

أقدم هذا الجهد المتواضع..

جمال عبد الفتاح الهور " أبو تقي الدين"

سجن إيشل ـ بئر السبع

مُقَدِّمَة

الحمد لله حمداً لا انقطاع له فليس إحسانه عنا بمقطوع، والصلاة والسلام على نبيه ومصطفاه محمد وآله وصحبه ومحبيهم ومن تبعهم إلى يوم الدين وبعد،

لقد تمت كتابة هذه الرواية المتواضعة خلف أسوار الأسر في سجون الاحتلال الإسرائيلي والقلم مطارد على مدار الساعة من قبل السجّان الذي يمارس القمع بشتى ألوانه حتى الكلمة المرسومة على قصاصة ورق يطاردها السجّان بتفتيشاته المستمرة فيخطفها بمخالبه الخبيثة ليبقيها حبيسة القيد.

في ظل هذه الظروف القاسية يظل الأسير يتسربل بخوفه الشديد على قصاصاته التي يخطها عبر رحلته الطويلة في ظلمات السجون وهو يرتقي سفينة الأمل التي تتحدى عنجهية السجان وهو يرجو من الله عز وجل أن تنجو كلماته من قبضة السجّان إذ لم يتمكن هو من الانعتاق من حياة القهر والحرمان.

أخي القارئ... في هذه السطور القليلة التي خطها قلمي الأسير منذ أكثر من اثنتي عشرة سنة لا أستطيع أن أضع بين يدك ألوان المعاناة والمأساة والحرمان التي يحيا بها الأسير الفلسطيني في سجون البغي الصهيوني، لكني حاولت جاهداً ومن خلال روايتي هذه أن أسلط الضوء على القليل مما يعانيه أسرانا وذووهم من أمهات وزوجات وبنين وبنات، من الاحتلال البغيض.

وأود أن الفت انتباه القارئ الكريم، أن هذه الرواية تمركزت حول فكرة واقعية وحدث حقيقي سطرته أصالة المرأة الفلسطينية المسلمة بإخلاصها ووفائها الذي قل نظيرة في هذا الزمان في مشارق الأرض ومغاربها، وقد حاولت أن أنسج

بصنارتي الإطار الأدبي الذي يليق بهذه الحقيقة مع إبقائي على المكان والزمان والشخوص كل على حقيقته وذلك لملامسة الواقع المرير الذي يحيا فيه شعبنا الفلسطيني المجاهد.

فإن أحسنا فمن الله وتوفيقه، وإن أسأنا فمن الشيطان وأنفسنا ولن تضيق صدورنا بناصح أمين أو ناقد حريص.

والحمد لله رب العالمين

1 كانون أول 1430 الموافق 1 يناير 2009

بين أحضان فلسطين الدافئة، وعلى قمة من قمم جبالها في شطرها الجنوبي المغطى بأشجار اللوز والزيتون تتناثر بيوت الطين المسقوفة بأعواد متشابكة من خشب البلوط والسرو والصنوبر. بيوت قرية صغيرة تنمو ببطء، كلما كساها ربيع، وكلما خلع عنها خريف ثوبه، عروسها مئذنة تتباهى بكبريائها، فلا جسور تنازعها معانقة السماء، ولا نواطح سحاب تهزأ بتفاخرها.

بيت كاحل.. تكتحل العين عندما تسبح عابرة في شوارعها التي تظهر على استحياء، فيها شوارع متواضعة، دالة على بساطة القرية وأهلها.

نساؤها غمامات سود إذا تنقلت بين البيوت والساحات، سترُهن الحياء والعفاف، ورجالها أبناء دين ووفاء، وأهل شجاعة وكرم، تلفهم بساطة الريف الذي أغناهم بهدوء لا يغضب، وصمت لا يضجر، فهم لا يعرفون مقاهي "لاس فيغاس" ونواديها، ولم يقضوا لياليهم في قاعات الأوبرا الايطالية، ولم يصبحوا عمالقة الفن الهوليودي ليكونوا أبطالاً لأفلام الوهم والخيال!، ولكنهم تربوا على موائد الفضيلة فكانوا أبطال الكرامة والوفاء، تجمعهم الأفراح، كما تجمعهم الأحزان، والواجب، فتراهم صفاً واحداً في السرّاء والضرّاء.

من بين أظهرهم ومن أعماق أرضهم، وعلى تراب قريتهم، نبتت شجرة طيبة، فترعرعت حتى غدت أسطورةً للوفاء، وعنواناً للمحبة والإخلاص.

ترعرعت في بيت صغير غير مكترث بزوابع الزمن، غير آبهٍ لضربات البَرْدِ والبَرَد، وعلى جدرانه نقشت آيات وعبر، ظلت تتلى على مدار الأيام، وعلى طول تقلب الأزمان والدهور

استعصت على جبروت النسيان، فبقيت تحلق كأرواح الحالمين كلما هبت عليها نسائم الذكريات.

بعد أكثر من خمس عقود مضت على الاحتلال اليهودي الغاشم لفلسطين الحبيبة، وفي الثاني من كانون الثاني من العام 1995 من القرن المنصرم، أطلت علينا من بيتها الصغير ترفل في ثوبها المطرز، وقد نقشت عليه لوحة تراث فلسطينية، وكأنه يحكي لنا حكايات الآباء والأجداد، نتدفق منه مشاعر وأحاسيس، لعلها الحياة التي خاطتهما ما زالت تتنفس بين ثناياه.

امرأة متوسطة القامة، سمراء الوجه، لا يظهر من جسدها إلا وجهها، على جبهتها يطوف نور تخاله تاجاً، إن سألت عنه قالوا: تاج من نور ألبسها إياه ربها، لصبرها الطويل على مرارة الألم والفراق، صبرها الذي لن ينفذ أبداً، فقد خُلط بمداد الصدق والوفاء في بوتقة الانتظار والأمل فصار جمالاً ونوراً مشعاً لا يغادر جبينها.

تقف كل صباح أمام نافذتها، تتثاءب، وأشعة الشمس الناعسة تداعبها بلطف، وتلمح في بحر عينيها المائجتين عناقيد عنب متدليات من دالية تحيط بنافذتها كلآلئ تتدلى على عنق عروس حسناء، عناقيد كلما نظرت إليها غازلتك ببريقها اللامع، حباتها تلتصق ببعضها البعض التصاق المحب للحبيب.

تنظر أم علي إلى عناقيد العنب، والندى يتطاير عنها كأنها العصافير تودع أعشاشها، ترفرف مرحاً بيومها الجديد، ترى الوجود كله يستقبل الحياة، فلا تقوى على حبس دمعاتها فتغلبها متساقطة متثاقلة من عينيها المتعبتين تخالط البلاط الملتهب تحت قدميها المرتجفتين من هول غدٍ مجهول.

زمانها وإن كان له شمس فهي حارقة لاهبة، وإن كان له قمر فهو بارد أعمى لا يرى، فإن هي فرت من برد الأيام تبتغي دفئاً في بريق الشمس المخادع أحرقتها، وإذا ما أرادت دليلاً ينقذها من بحر المجهول، قادها قمر حيران ضل السبيل فطاف بها طويلاً في بحرٍ لا شواطئ له كأنه بحرٌ سراب في عالم اللامعقول.

تركب أم علي سفينة الأمل فتبتعد بها في رحلة التفكير العجيبة، لتضربها رياح صماء لا تسمع أنّاتها، فتقودها بشراع ممزق خلف كل الحدود تارة، وتارة تقف في دربها أمواج هائجة فتجبرها على الإبحار في غموض الواقع وتيه المستقبل المفقود!.

تعيدها زقزقة العصافير من بحر الهموم، فتنتفض ثيابها من غبار الوهم والأحلام، تعود إلى الوجود بعد ما سافرت في رحلةٍ.. ربّانها الحلم، وبحرها المجهول، ومسارها متعرج متعثر بين الوهم والحقيقة.

ترسل سهام عينيها عبر النافذة مرّةً أخرى، فإذا عناقيد العنب ماثلةً أمامها لم تبرح مكانها! وكأنها انتظرتها حتى عادت من رحلتها فنادتها ببريقها الجذاب.. لكن أم علي رفضت الدعوة.. فأعادت الطلب، وألحت.. فاقتربت خائفة حذرة، ومدت يدها تصافحها، لكنها رُدَّت إلى صدرها ساخنة فزعة!.. تساءلت ..ما الذي حدث لهذه العناقيد؟.. أشعر أن جمالها وصفاءها انقلب لهباً كاد يلتهم يدي.. شيء عجيب يحدث!.. أهو

السحر؟! أم الوهم؟ بحذر شديد أغلقت نافذتها، لترد عنها ألسنة اللهب المنبعثة نحوها.

أحكمت إغلاق النافذة وفرت من غرفتها إلى غرفة أخرى لا ترى من خلالها دالية العنب، ولا تشعر بحرها اللافح.

هدأت أعصابها قليلاً، ثم عادت إلى غرفتها متحدية وضعها وهمها، فاندست بين لحافها وفرشتها، فهنا ركنها المنيع، ومأمن أسرارها، ومملكتها التي لا يشاركها فيها ولد ولا بنت.

هنا لا عيون ترقبها.. ولا طارق ليل تطالها يده.. بعد أن زال خوفها، وسكن روعها، وفارق الهلع عيونها، واطمأنت اطمئنان الواثق الحذر، نهضت من فراشها، ونظرت ملياً إلى خزانتها المركونة في الناحية الجنوبية من الغرفة، توجهت نحوها بخطوات ثلاث، حتى توقفت منها على بعد نصف ذراع.

مدّت يدها فصافحت يد الباب فانفتح، فصاح بصوته المزعج المتقطع كشيخ كهل انحنى ظهره، وفارقه صوته مع شبابه

البعيد، فباب خزانتها مصنوع من خشب قديم، قدم انتمائه لهذا البيت من خمس وعشرين سنة مضت على زواجها.

حاولت كتم صوته بصكة من أسنانها، ثم أتبعتها عضة على شفتها السفلى، لكنها لم تفلح في ذلك، فكلما حركته ضج متعمداً فضحها، ولما رأت عناده اكتفت منه بفتحة صغيرة على قدر قبضة يدها.

تسللت يدها داخل بطن خزانتها، دون دليل أو نور يضيء عتمتها، فهي مأمورة تعرف مرادها وطريقها، غابت يدها في العتمة، فعادت تحمل لفة قماش من الحرير لونها أحمر مورّد، مطوية طيّ السجل للكتب، معقودة بخيط من قصب أصفر برّاق.

أخذت تتحسس براحة يدها، مثل مرضعة تمسح على شعر رضيعها، إلا أنّ رجفة يدها فضحت توترها، وعيناها المحملقتان شاهدتان على فزعها، من يطاردها؟، أم أنها الوحيدة؟ التي أصبحت ناقوس رعب يهاجمها كلما انفردت بذكرياتها!.

حيرة لم تدم طويلاً، اتخذت قراراً لفتح القماشة، وإلقاء نظرة على ما بداخلها، فبدأت بحل العقد المحكمة، انفتحت وتيرة التوتر عندها وزادت رجفة يديها كلما انحلت عقدة من عقد الخيط، سقطت القماشة من يدها، تلقفتها بسرعة فائقة كي لا تلاحق الأرض ثم تابعت حل العقد وقبل العقدة الأخيرة سمعت صوت طفل يناديها من خلف الباب لم ينتظر صاحب الصوت قدومها اقتحم عليها مخدعها وخلوتها دون استئذان منها، تلعثمت، تملكها الارتباك فأخفت يدها خلف ظهرها.. نظر إليها بعين وترك الأخرى تتابع حركة يدها.. أقبل عليها مهرولاً.

فأخفت قماشتها تحت وسادتها... على عجل ومن ثم تلقفته بين ذراعيها... ماذا تريد يا علي؟ ما الذي أتي بك في هذه اللحظات الساخنة؟

قال: "عايز قُطُفْ عنب"

قالت: اذهب إلي الدالية فالعنب موجود هناك، وليست عندي.

قال: أعرف.. "بس بدّي أنتِ تقطعي لي القطف "

قالت: آآآآه... يا علي لا تزد همي... دعني يكفيني ما حلّ بي.

تمعر وجهه وبدأ يفرك عينيه بقبضة يده، ينذرها بالبكاء

قالت: لا تبكي يا ولدي... لا تبكي... وتتابع الهمس بشفتيها.

إنك و الله تضعني أمام موقف صعب وقد لا أستطيع التغلب عليه بالسهولة التي تظن... على الرغم من صغر سنّه، يتعجب من حفظ التردد الذي أبدته أمه، إذ لم يطلب منها شيئا عجباً... بل سبق له أن فعل ذالك مراراً فما بالها اليوم تتهرب منه بهذا الإصرار العجيب، حاولت مراوغته بالحديث لكنه زاد إصراراً على طلبه فكانت عاجزة تماماً أمام هذا العناد وهي تعلم جيداً أن هذا الصغير لا يهمه شيء في هذه الدنيا لا تلبيه رغباته، ويجهل الثمن الذي ستدفعه أمه مقابل تحقيق مراده.. لا يعنيه شيء فهو لا يشعر ولا يرى اللهب الذي يتأجج في أعماقها فالأمر

بالنسبة إليه بسيط للغاية.. أن تقوم من مقامها تمشي عدة خطوات تصبح خارج البيت.. تحت "عريش العنب" ثم تمد يدها على طول ذراعها فتعود بقطف العنب.

طال انتظار علي.. فقام من حُضنِها، أمسك بيدها، وراح يجرها نحو الباب.. فلما رأت عيونه اغرورقت بالدمع وحَنّ قلبها، ورفقت به متناسيه نفسها.. فأخذت بيده تمتمت قائلةً: ليغفر الله لك يا علي، هلا رحمتني قليلاً.. ثم تابعت قائلة: لعل الله يمتحنك يا أم علي؟ لعله يمتحن صبرك ووفاءك، تقدمت به على مهل فلما أقبلت إليه من خلف الباب وقع بصرها على عناقيد العنب، رقصت شفتاها كأن البرد ارتشفهما، وبدأ جسدها يهتزّ كأنه مغروس في كومة ثلج، أحس علي برجفتها، فحسبها ترقص طرباً وفرحاً بشقاوته، ثوان معدودة، أدرك علي بعدها أن الأمر على عكس ما يظن، فأصابع يدها الناعمة التي تهدهد كتفيه، وتمر بهدوء متعرج على شعره الحريري ليست هي نفسها الأصابع التي تطوّق معصمه بقسوة حتى أخرجت الآه من أعماقه.

فالتفتت إليه بعين غاضبة حذره، فأطبق شفتيه وأغمض نصف عينيه، تعالت على جرحها، فتقدمت به حتى وقفا تحت الدالية التي تحجب ضوء الشمس عن نصف الساحة أمام البيت، وخُضرة أوراقها تسلُب الأنظار، وعناقيدها دانية مذللة، تلمع مثل نجوم تحوم في صفحة سماء صافيه، في ليلة صيف اكتمل بدرها.

وقفت أم علي تقلب بصرها بين ولدها وحبات العنب، بينما هي على هذا الحال غارقة في حساباتها، اندفعت منها من داخلها آه ثقيلة، ثم تبعتها آهات ما انقطعت حتى كادت تقطع أنفاسها، وعلي مطرق ينتظر حتى طال انتظاره، فأخذ يحاول رفع يدها ليديه الصغيرتين متعجلاً الأمر، أرسلت يدها معه إلى أن اقتربت من أحد العناقيد وقبل أن تلمسه ردتها إلى صدرها، ونزعت يدها الأخرى من يد علي ورجعت إلى الوراء خطوات وهي تولول.

ارتمى علي على الأرض صارخاً مغرقاً في بكائه وعويله نهرته بصوتها ليصمت ويتركها وشأنها، لكن تابع بكاءه وتقلبه على الأرض، عادت إليه، رفعته واحتضنته بدفء قلبها - ما أقساني

يا ولدي لا تبكي - المفعم بالحب واتخذت قرارها الصعب، أن تدوس على مشاعرها من أجل رغبة ولدها، مهما كانت النتائج، ما بالها تتردد اليوم وهي التي اعتادت دفع ثمن الوفاء والإخلاص مرّة من زهرة شبابها التي لبست ثوب الكهولة الأبيض على عجل فذبلت قبل أوانها، ومرّة من روحها التي تعودت مصارعة الأيام وقهرها في معارك ما فتئت رحاها عن الدوران.

كسارق ليل يختبئ تحت ستار العتمة حتى لا تتخطفه عيون الحراس، تمد يدها بسرعة خاطفة فتنهب خصلة صغيرة من أحد العناقيد، وأبقت عليه قائماً حتى لا تفقده العناقيد من حوله فتحس بالجريمة، سرقت خصلة صغيرة فألقتها في يد ولدها، ثم نفضت يدها لئلا تلتصق بها شبهةْ تخدش وفاءها.

جلست على عتبة الباب تنظر إلى ولدها وهو يقضم حبات العنب وقد انشرحت أساريره، فتبسمت له، فأقبل عليها ماداً يده بإصبعين يحملان حبة عنب اختلط لونها بين الخضرة والسمرة، يدفعها تجاه فمها، فما إن لامست شفتيها حتى أحست حرارتها، تفوق حرارة جمرات تقدح لهباً في "كانون" يتّقي بها من برد يوم

شديد العاصفة، في فصل شتاء معرّى إلا من وميض برقه الخاطف للأبصار، وقعقعة رعده المرعب الذي يطارد الناس حتى مخادعهم، وحبات برده التي تتباهى برقصتها من خلف النوافذ تحدياً وتمرداً.

قدم بها حبة العنب، وما يدريه هذا الجهول أنها قد تشعل فيها ناراً وقودها عهد ووفاء، وإذا ما شبّت هذه النار واشتعلت في حشائش عمرها اليابسة وأعواد سنيّها المكسرة على عتبات الزمان، فلا يوجد في هذا الكون من يطفئها، عندما ستأتي على كل العهود والمواثيق التي طوّقت بها نفسها، وعندما تخبو شعلتها وتخمد جمراتها يجول بداخلها الإحساس بالذنب فيحرك حطام الذكريات فتصير من جديد وقوداً تحرقها نار الشوق فتحيلها رماداً يخالطه تراب الماضي وقليل من بقايا العمر الممزق.

ومن بين هذه الأفكار المتزاحمة والمشاعر المتأججة تفر إلى حضنها ممسكة بطرف ثوبها كي لا تتعثر به، حذاؤها يفر من قدمها، تنظر إليه عاقدة حاجبيها، لا وقت لديها لمطاردته، تكتفي بلعْنِهِ، لتتابع سيرها غاضبة، تدخل غرفتها، جلست على كرسيها

الخشبي وعيونها تحملق في زوايا الغرفة، ثم قامت إلى النافذة تنظر إلى علي خلسة من خلف الستار فرأته مندهشاً حيراناً وكأنه يتساءل، ما الذي أصاب أمه؟ وما هو الفعل الشنيع الذي ارتكبه بحقها فجعلها تفر مذعورة كأنما أطلقت عليها رصاصة؟! مشت به قدماه بخطوات مترددة نحو بابها، وقف خلفه يسترق النظر من بين الشقوق ببراءته التي لم تهده إلى النصف المفتوح من الباب، المتروك على عجل بعيداً عن قفله، علي ينظر إليها مرة ويلقي نظرة أخرى على ما تبقى من عنب بين يديه، والحيرة لم تفارقه، فجأة ألقى ما بيده فتدحرجت ثلاث حبات من العنب على الأرض ثم ركض خلفها فالتقطها ثانية، مسح الغبار عنها بطرف كُمِّه، فألقاها في فمه وهو على حيطة من أمره، سهام عينيه عادت ترقب أمه، فرآها تدخل يدها تحت وسادتها، فأخرجت لفة قماش أحمر، فراحت تمرر يدها بلطفٍ وحنان وهو شاخص البصر، يتبع حركة يدها، يرها تقبلها بشغف، فما هذا الحب العجيب الذي يربطها بهذه القماشة، يجعل دموعها تهوي من محاجرها تتراقص على بساط آهاتها كحبات لؤلؤ انفرط عقدها.

جدها مطاردٌ يشبه شرور يوم دافئ في فصل شتاء قارص، أخذت نفساً عميقاً، ثم أطلقت من بعده زفرة لها صرير ريح تضرب أشجار غاب ملتفة، أو كأنها إعصارٌ يقتلع الخيام من مرابضها، يشبه حالها صاحب "أرجيلة" تراكمت على أكتافه هموم الحياة وتكالبت عليه أهوالهم فيأس بأرجيلته ليقهر عنجهية السنين والأيام بزفرة يخرجها من أحشائه محملة بذرات الهموم والأوجاع، فيذروها كرمادٍ اشتدّت به الريح في يوم عاصف.

من بين هذا الرعب ومن طوق الارتباك، تفلت من شفتيها بسمة تنقلها من حال إلى حال، تنقلها من فزعها إلى ارتياح وهدوء، ثم إلى همسة من لسان انعقد طويلاً فجعلته حراً يحدث لسان الماضي ويخاطب زمن الذكريات، فقامت تتنقل في أحضان عشها الصغير، وهي تمسك في قبضتها شيئاً صغيراً، يحاول على الوقوف ببصره على هذا الشيء الذي بيدها، والذي رسم الفرحة على وجه أمه.

يلقي نظره على سريرها فيرى لفة القماش قد فُتِحت وحُلّت عِقَدُها، فيدرك أنها تحمل بيدها ذلك الشيء الذي كان بداخل

لفة القماش، يعود إليها مدققاً النظر، محاولاً الوقوف على ما تحمله لكن حرصها واحتضان يدها لهذا الشيء حالا بينه وبين مراده.

تعب علي من مراقبة أمه والوقوف خلف الباب يختلس النظرات، فراح يلهو ويلعب، تاركاً أمه لشأنها وعالمها.

مرّت عليها ساعات وساعات، وهي في بحر الشرود على متن سفينة لا تبحر إلا على خارطة الأيام اليابسة، غاصة سفينتها بعيداً فما أعادها من ضباب الحيرة وسراب الأيام المجهولة إلا صوتاً جميلاً انطلق ملأ الوجود حياة، وبعث الروح من جديد في حاراتِ القرية وأزقتها وشوارعها.

إنه مؤذن القرية الحاج أبو محمود يطلق العنان لحنجرته لتتغنى بصيحات التكبير وتشدو بلا إله إلا الله، ومع نبرات صوته الجبلي، تعود أم علي إلى عالم الحقيقة بعدما تركته إلى عالم اللاوجود عالم الأحلام والذكريات.

صوته الندي القادم إليها من خلف الفضاء لم تمنعه الحواجز والبيوت المتلاصقة بأن يسمعها ويذكرها أنها ورغم رحلاتها

المتلاحقة إلى عالم اللاوجود، ما زالت ترقد في أحضان بيتها المتواضع الصغير.

عاد علي بعد ساعات من اللعب إلى موقعه، فرآها تقبل بحرارةِ شفتيها ذاك الشيء الذي بين يديها، فتمنى لو أن هذه القبلات الطاهرة تسقط على وجنتيه، فمن ذلك اليوم المشئوم الذي اختطفت والده من بين أظهرهم، منذ ذلك الحين لم يحظ بقبلة دافئة من شفتيها، وقد ظن أنها ما عادت قادرة على فعل ذلك لسبب ما لا يعرفه، لكن ها هي تقبل يديها أو شيئاً ما بين يديها، يا للعجب!.

لفت نظره أنها أدخلت يديها داخل خزانتها فعادتا فارغتين، ثم أغلقتها بإحكام تام، وألقت مفتاحها في جيب صدرها، همّ علي بالدخول، فمنعه صوت أخته تحرير التي كانت من خلفه تترقب حركاته، فنهرته إلى خارج البيت ليترك أمه في مخدعها دون أن يزعجها.

وقفت أم علي أمام نافذتها المطلة على مسجد القرية فقالت بهمس: يا أبا محمود، لقد كان لومي على ولدي الصغير الذي يقتحم عالمي ببراءة دون إذن مسبق، أما أنت.. فما دهاك؟ أما تعلم أنني أرحل عن عالمكم مع النجوم ولا أعود إلا على وخز سهام الشمس الدافئة، ثم تحدث نفسها بصمت، وما يُدري هذا الشيخ برحيلك عن هذا الوجود يا أم علي؟، فهو يشبه الآخرين، كغيره من الناس كل له همه وعالمه الذي يشغله على مدار الساعة، أم أنك تعتقدين أن كونه مؤذناً كان عليه أن يعلم ما حلّ بك، ويعينك على ما أنت فيه، لا، لا يا أم علي فهو يشبه الآخرين من الجيران والأقارب وباقي أهل القرية، مَنْ منهم يشعر بالنار التي تحرق أحشاءك ولِمَ اللوم والعجب فها هم أولادي وبناتي كل له أحلامه ورغباته وطلباته التي تنقطع، فانا لا ألومهم، يكفي أنهم شموع تملأ نواحي البيت وتضئ زواياه بنورها المتمايل كلما حرك النسيم شعلتها، نعم إنهم شموع لولا ضجيجهم الذي يقطّع عليّ خلوتي وشردي، فكلما انتصرت على واقعي المرير

ورحلت إلى حيث أحلامي وذكرياتي، أعادني صراخهم إلى حيث كنت.

أكملت ترديد أذان المغرب مع المؤذن الذي أيقظها من حلمها الذي يبدأ مع إشراقه كل شمس ويتوقف للحظات ساعة غروبها وهي مولية هاربة من شظايا نور القمر التي كسفها كسفاً، ثم يعود إليها مع انتظام النجوم في صفحة السماء العتمة وقد توسطها قمر تائه يبحث عن الحقيقة في فضاء المجهول فتصاحبه أم علي ليؤنسها من وحشة تيهها وعزلتها، فيغوص بها من جديد إلى أعماق اللانهاية، فما يعيدها إلا صياح الديكة وهي ترسل ترانيمها البديعة فتملأ الأجواء حركة وحياة، تتفتح العيون المثقلة بالنعاس على ميلاد يوم جديد شاهد على أحوالها وتتكرر الحكاية وتتعاقب الأحلام بألوان شتى، وتكرِّ عليها الأيام حتى تبلغ أيام غربتها في عالم الواقع والحقيقة تسعين يوماً.

تنهض من فراشها السّاخن، وهي لا ترغب بمفارقته، تحملها خطاها المشتاقة إلى المكان الذي اعتادت الوقوف فيه على طول السنين، هناك أمام بيتها تقف مقيدة بسلاسل الحياء، تستقبل

شمساً جديدة تطل عليها من خلف الجبال، تغازلها بأشعتها المنبعثة من بين أشجار السرو المتمايلة لتؤدى سجدة الصباح.

تهبط أشعة الشمس فتضئ سماء القرية، وتحطم حاجز الصمت الرهيب، تحرك الجمود وتذيب السكون، وتعيد الأرواح إلى صغارها فيتراكضون نحو الحياة.

شوارع القرية تعج بالكبار والصغار، فلاحون على دوابهم ويسْرحونَ، ورعاةٌ مع أغنامهم وأبقارهم يقطعون الشوارع نحو السهول والجبال، وامتلأت الدنيا بحركة الطلبة الذاهبين إلى مدارسهم كل هذا يمرّ أمام ناظرها وهى تتفحصهم بعين ثاقبة، فسرقت غفلتها عقلها فراحت تبحث بينهم عن قامته الممشوقة وعن لباسه ونعله الأسودين.

فقبل شهور وقبل أن يغادر البيت دون وداعها كانت تراه بهذا اللباس الذي زاده جمالاً ووقاراً، وهاهي الأيام والشهور تتوالى وهي تنتظر عودته ولكنه ما عاد (محمداً)، تفحصت الناس فلم تجد محمداً بينهم فراحت تقلب بصرها بين السماء والأرض،

بين الجبال والأودية والأشجار، ثم آنست نفسها قائلة "الصبر جميل يا أم علي"، ولابد أن يأتي اليوم الذي تنتظرين.

نظرت من حولها فإذا أعمال البيت قد تراكمت عليها، كومة الغسيل وأواني المطبخ المتناثرة وساحة البيت المغبرة، وواجب الصغار عليها، كل هذا على كاهلها والأولاد إما في مدارسهم وإما صغاراً لا يمكنهم مساعدتها كما يجب، فبدأت تعمل وتجد بكل ما أوتيت من نشاط وحيوية، تبذل أقصي جهودها لتنهي أعمالها وتعود إلى حلمها الذي صار جزءاً أساسياً من فكرها وحياتها.

كل صباح بعدما يودعها الأولاد إلي مدارسهم، تنهى أعمال بيتها وتختفي خلف ستائر الذكريات، وتبقي هناك بعيدة عن الأنظار حتى تميل الشمس عن هاجرتها، وكثيراً ما يسرقها الوقت وهي لا تشعر بعقارب الساعة التي تقطع المسافات بأسرع بطء، وهي تلاصق بعضها البعض تلملم دقائق اليوم المبعثرة فتجمعها في سلة بأربعة وعشرين ثقب، نصفها ليلٌ وذكريات ونصفها الآخر نهار وأمنيات، قد يسرقها الوقت كثيراً فتغفل عن

إعداد الطعام لأبنائها قبل عودتهم من مدارسهم، وصوت المئذنة القادم مع النسائم من بين الأزقة والبيوت، ومن خلف الجدران والنوافذ، هو ساعتها التي تنذرها بمجيئهم، فتهب لإعداد الطعام لهم فما أن تنتهي حتى يقبلوا عليها يسبقهم صوت الجوع تستقبلهم بحضنها الدافئ وترسم بريشة شفتيها على جبين كل منهم قبلة الحنين مجبولة بألم الفراق.

يجلس الجميع حول المائدة بحلقة شبه دائرية فدوماً هناك جزء مفقود يملؤه لون الأمل الذي تراه دون غيرها بعيونها التي ترسل خيوط الشوق لتلامس مكانه الذي لطالما جلس فيه فيتجلى لها ماثلاً كأنها الحقيقة في ثوب الحلم والأمل.

مشهد يتكرر كلما مر الصغار من حول المائدة، والأيام تمرّ تترى، ومازالت معركتها مع عناقيد العنب قائمة والصراع مستمر، وفي كل جولة تحقق نصراً وتفتخر بسلاح الوفاء الذي تتسلح به وتعتقد أنه أقوى من حمم العناقيد التي تكوى روحها وقلبها، وذاك البريق اللامع المنبعث منها كاللهب لن ينال من عزمها وكبريائها.

كلما خلت نفسها داخل غرفتها راحت تذكرها بالعهد الذي قطعته على نفسها وكلما وجدت منها ضعفاً أو وهناً تتعهد بنفسها قائلة ستنتصرين في كل المعارك إن شاء الله وستظلين قوية متمسكة بالعهد مهما طال غيابه.

ألقت جسدها على سريرها وانخفض صوتها فوق جفونها المثقلة بالنعاس، فغاصت في بحر نومها تتقاذفها أمواج الأحلام حتى حطت بها على شاطئ يوم جديد.

نهضت من فراشها مسرعة، على غير عادتها، ارتدَت جلبابها وملاءتها، حملت حقيبتها الصغيرة، وضعت فيها بعض النقود، نادت ابنتها تحرير، لبت تحرير النداء سريعاً، لحظات قليلة كانت تقف أمام أمها.

أم علي: تحرير يا بنيتي، أنا اليوم ذاهبة إلى المدينة عليَّ أن أُحضِر بعض الأغراض للبيت، وعليك أن تجهزي إخوتك للمدرسة.

تحرير: لا عليك يا أمي، لا تقلقي علينا، "سهل الله أمرك" وأعادك لنا بالسلامة.

توجهت أم علي إلى موقف السيارات، وقفت على الرصيف تنتظر سيارة تقلّها إلى المدينة، وعيون الناس تفتشها من شاش رأسها حتى أخمص قدميها، والحيرة تدور مع بريق عيونهم، فهم لم يعتادوا خروجها من بيتها إلا بصحبته.

لم يمض من الوقت إلا القليل حتى وقفت لها سيارة أمامها كانت لأحد أقاربها فأنقذتها من نظرات الناس التي لا تملك لها تفسير، كان مقعد السيارة الخلفي فارغاً تماماً من الركاب فآثرت أن تنفرد فيه رغم أن السائق أشار لها بالجلوس في الكرسي الأمامي، جلست صامتة بعد أن ألقت على من في السيارة التحية والسلام، ولم يسمع إلا هسيس صوتها ونفرات أنفاسها التي التصقت بزجاج النوافذ فصار كأنما أمطر الضباب، سارت بها السيارة وهي صامتة خاشعة والركاب يتناولون أطراف الحديث دون أن تلقي لهم بالاً بل راحت تحلق بفكرها بعيداً وبقي جسدها فقط يحتل كرسياً داخل السيارة كان السائق يختلس

نظرة إليها عبر مرآته بين الحين والآخر ويراها شاردة بفكرها إلى عالم آخر، هم مراراً بالحديث معها وسؤالها وبعد تردد لم يطل، وجه إليها سؤاله قائلاً: يا أم علي، هل سمعتم أو علمتم عنه شيئاً؟ فردت عليه بصوتها المخنوق بكلمة واحدة: لا، يدرك من خلال جوابها أنها لا تريد الإسهاب في الكلام، فسكت.

لكن سؤاله أعادها إلى البيت حيث علي وتحرير وسيد وأثير وضرار وتهاني وأسئلتهم التي لا تنتهي عن مصير والدهم، خاصة تحرير التي كانت على علاقة قوية مع والدها، جعلتها تفتقده كثيراً وخاصة في المناسبات وأيام الأعياد ولَكَمْ تمنت تمسك بيده فيأخذها إلى بيت خالتها شريفة سعياً على الأقدام حتى تراها رفيقاتها وتتفاخر عليهن، أو يصاحبها صبيحة كل عيد مع إخوتها وأخواتها إلى أعمامها وعماتها وأخوالها وخالاتها، ومن ثم يصاحبها في رحلة قصيرة نحو الوادي حيث عين الماء والأحراش وزقزقة العصافير، لكن هذه الفرحة سرقت تحت عباءة الليل سرقتها عنجهية المحتل وظلمه، فصار الصغار والكبار ضحية لهذا الغضب

الذي سلبهم والدهم ووقف سداً عالياً حال دون تحقيق أحلامهم وأمنياتهم.

تنتقل أم علي بفكرها من مشهد إلى مشهد من خضم المشاهد الكثيرة التي تزودهم بها ذاكرتها، فهذا مشهد الحاجة دلال "أم طلال" يلقي عليها ظلاله، هذه العجوز التي أكل الدهر عليها وشرب، فقد كانت أم علي تنظر في وجهها فترى تعابير الزمن المقلوبة واختلال الموازين، كيف تصنع بأصحاب الحق فتتركهم صرعى على مذبح المغتصبين، وكيف تفقأ العيون حتى لا ترى سوءة الطغاة وتُصمّ الآذان فلا تسمع صرير أحلام المشوهِين للحقيقة والتاريخ وتنقش تجاعيد تشهد على عقود السنين الأليمة.

كانت أم علي تستأنس بالحاجة دلال عندما تأتيها كل صباح تجلس على حجر يرتكز في إحدى زوايا ساحة البيت، تريح ظهرها الذي أحنته الأيام، تسند عكازها على حائط البيت تضح يدها على خدها فتبدأ بتقليب المواجع وهي تستذكر أبا علي بحركاته

وسكناته، تستذكره عندما كان يلقي عليها التحية والسلام آخذ بيدها حتى يجلسها بجانبه فيضفي عليها من حنانه ورأفته.

كانت أم طلال تقص حكايتها بصوتها البطيء المتقطع وكأنها تذبح أم علي بحديثها الطاعن في السن، في خضم هذه الشرود يخرج صوت السائق من جديد سائلاً هل أخبركم الصليب الأحمر بشيء؟ حاولت أم علي أن تبقى صامتة، لكنها تنهدت ثم ردت عليه ببرود ملحوظ، قائلة:لا شيء جديد، ثم تململت في مقعدها وحركت قدمها كأنها تدفع عجلات السيارة التي شعرت ببطئها رغم أنها كانت تسير بسرعة ممنوعة.

وصلت السيارة وسط المدينة، فنزلت منها بسرعة فأطلقت لأنفاسها العنان لتفلت من سجن الكتمان، سارت في شوارع المدينة تبحث عن حاجتها والناس من حولها زرافات ذهاباً وإياباً، فانطلق بصرها دون استئذان ليفتش بين المارّة عنه، وهي على يقين أنه كان قريباً أو حراً طليقاً أو ما زال على قيد الحياة لما تأخر عنها للحظة، كيف؟ وهو الذي يعشقها كما تعشقه ولا يقوى على فراقها أو هجرها.

كانت تعرف جيداً أنها لن تراه صدفة في حنايا هذه الشوارع وزواياها والسواق يُطل عليها من إحدى نوافذ البنايات العالية ومع هذا فقد راح بصرها يبحث عنه ويسرق النظرات من تحت حجابها وغطاء حيائها، لعلها تقع على جلابيته المسترسلة أو قمبازه المتعالي على كل الخطوب، وراحت تُمني نفسها لعله يظهر فجأة أمامها فيختطفها من بين أسراب الناس فيهرب بها إلى عالمهم البعيد عن كل العيون.

شيئاً فشيئاً تحملها أقدامها إلى عمق الأزقة الضيقة في السوق وصيحات تجار المحلات المختلطة بصيحات تجار البسطات، تتابع سيرها إلى أن تسمع منادياً ينادي بأعلى صوته "أخضر يا عنب، عسل يا عنب، دمعة يا عنب" فتسمرت قدماها في الأرض، وشحب لونها واهتز بدنها، وحدثت نفسها متعجبة: هل سمعت أحداً ما ينادي لبيع العنب، أم أنا في حلم، أكيد أنا في حلم، لا لا، بل هي حقيقة، وأنا اليوم في السوق فلا غرابة في أن أسمع مثل هذا النداء، وأنا على يقين بأن هذا البائع لا يعلم بحكايتي حتى

يمازحني، امض في سبيلك ولا تلتفتي إلى هذا الصوت، والذي ملأ قلبي خوفاً ورعباً.

تابعت أم علي سبيلها عبر السوق وبصرها يقود خطواتها دون أن ترفعه عن الأرض حتى لا يقع على "بسطة" لأحد الباعة تتكدس عليها عناقيد العنب فتخطفه بلهيب بصرها فتتيه في شوارع المدينة، وبينما هي على حالها هذا تجدّ في السير متجاهلة كل الأصوات وعيونها لا تبرح الأرض، إذ ارتطمت بعربه يجرها حمارٌ تقطع الشارع وسط السوق.. رفعت رأسها فإذا هي على مقربة ذراع من كومة كبيرة من العنب تحملها العربة فتجمدت مكانها دون حراك.

ارتجف صاحب العربة.. خاف أن يكون قد لحق بها أذى، فقفز مرتعباً توجه نحوها سائلاً حذراً، هل أنت بخير يا أختاه؟ والله لم انتبه، هل حدث لكِ مكروه، دعيني أقلك للمشفى، تقاطر الناس من كل ناحية حتى أحاطوا بها وهي لا تسمع ولا تنظر إليهم، بل عيونها شاخصة إلى العناقيد التي سلبت

بصرها، وتركتها مفتوحة شاخصة دون رؤية كأنما تغشّاها الضباب.

تعالت الأصوات من حولها، حتى اقتربت منها امرأة، فوضعت يدها على كفها ولم تلق لها بالاً، فمررت يدها أمام وجهها، حسبتها عمياء لا تبصر كما ظن كل من تجمع حولها من الناس، ثم أخذت المرأة بيدها إلى طرف الشارع بعيداً عن الناس فنفضت أم علي يدها بقوة فخلصتها من يد المرأة، ثم شقت طوق المجتمعين، مبتعدة عنهم دون أن تهمس ولو بكلمة، كل ما يدور في خلدها من جدل، سؤال واحد، لماذا القدر يطاردني؟ لماذا لم يتركني على الأقل حتى أنهي يومي هذا وأعود حيث لا يراني الناس هناك في بيتي؟ لماذا؟ وكيف الخلاص؟ أسئلة كثير تطاردها منذ ذلك اليوم الذي فقدته فيه، وهي تعلم أن الجواب والرد على هذه الأسئلة سيكون حاضراً حال عودته إليها، إن كان حياً !!.

مرت ساعات عليها في السوق حتى "اقتربت" الساعة من الظهيرة والشمس استوت متوهجة وسط السماء، وهي لم تشتر إلا

القليل مما تحتاجه للبيت، ولكنها قررت العودة بأسرع وقت، فقد أتعبها ذلك الموقف مع العربة، توجهت نحو موقف السيارات، استقلت سيارة في أقل من عشرين دقيقة كانت تقف على عتبة البيت فألقت نظرة خاطفة خلفها على الدنيا وكأنها تتركها لها وعادت هي بروحها المشردة بين الماضي والحاضر وبين الحلم والأمل.

دفعت بيدها الباب تتسلل إلى المطبخ مباشرة متجاهلة أصوات الضحكات المتعالية من غرفة الضيوف، لكن عيون علي المتلصصة لمحت طرف ثوبها يمر نحو المطبخ فصاح ها هي أمي جاءت فيركض إليها، تبادره الكلام سائلةً: من يوجد عندنا؟

قال: خالاتي وأخوالي جاؤوا من قبل الظهر.

قالت: آه، ما الذي جاء بهم في هذا اليوم؟ وما هذه الزيارة؟

يا رب يكون خير، تعال يا علي، تعال نذهب إليهم لعلهم يحملون لنا أخباراً جديدة.

دخلت إليهم وألقت التحية وسلمت على أخواتها وإخوتها وبسمتها تختلط شيء من العجب، جلست على أريكة إلى جانب أختها شريفة وعلي واقف بين يديها، لتحدثها عن مشوارها إلى المدينة وعن مشترياتها دون أن تحدثها عما حدث معها في السوق، طالت جلستهم وهي تنتظر أن يلقي عليها أحدهم خبراً ساراً يدخل عليها الفرحة وينسيها ألم الأيام ووجعها، ومرت ساعة تلو ساعة وقاربت الشمس على الأفول وهم يتناولون أطراف الحديث، كل يحدث عن أحوال بيته وعمله، ويكتفون بالدعاء له أن يعود قريباً، ولما يئست من أن تسمع من أحدهم خبراً عنه، فجأة يقف أخوها فيشير إليها بيده فتتبعه إلى خارج غرفة الضيوف، انتفض بدنها وخارت قواها من إشارته المفاجئة فقامت على أقدامها ترتجف رجفاً خشية من سوء يقع وفاجعة تحل بهم، تبعته بخطوات متأرجحة حتى وقفت أمامه.

فقال: يا أختاه، لقد قضى الله أمراً كان مفعولاً.

فصكت وجهها وشهقت، فتدارك الحال، فقال: لا، ليس ما تظنين، إنه بخير والحمد لله، لكن اليوم جاءنا خبر من الصليب

الأحمر يقول: إن أبا علي موجود في قسم التحقيق في سجن الخليل المركزي، وسيواجه محكمة عسكريه الأسبوع القادم، فلما سمعت الخبر تلبسها امتعاض يعلوه هدوء خالطه شيء من فرح، يكفي أنه حي يرزق وكل مصاب بعد هذا يهون، ولا مفر من قدر الله، والحمد لله على كل حال، ثم شكرت لأخيها هذا الخبر السار، وانسحبت من أمامه دون تفكير إلى عشها الذي تعشقه عشق الرضيع لنبع أمه.

ألقت جسدها المنهك على بساطها الخشن تغمض عينيها فترحل بعيداً بخيالها الذي لاحقها بأسئلة لم تنته،

متى سيأتي ذلك اليوم الذي ألقاه فيه؟

هل سأراه حقيقة بعد هذا الفراق؟

كيف أصبح شكله اليوم؟ وجهه، شعره؟!

هل نحل جسده؟

هل سأتحدث إليه؟

هل سألمسه بيدي؟

عندما يراني، ماذا سيقول؟

كيف سيكون شعوره؟

هل سيبكي؟ لا لا، فالرجال لا تبكي عيونهم، إنما تبكي القلوب التي بين أضلاعهم، ولا يجوز أن تذرف عيونهم الدمع فهو عزيز غالٍ.

راحت ترسم وتخطط للقائه في ذلك اليوم المجهول زمانه ومكانه والسعادة تغمرها، فوقعت عيونها على خزانتها الخشبية المسندة على الحائط الجنوبي من غرفتها، فقامت إليها فمدت يدها، فما كادت تفتح بابها حتى انبعث من داخلها رائحة ملابسه، فتلقفت قميصه العنابي فضمته إليها تستنشق عبقه، وفجأة، لفت انتباهها هذا اللون الذي يشبه لون حبات العنب الملونة كشطري الخيال حمرة وسمرة، فأحست حرارة لهبه الذي بدأ يتسلل إلى صدرها لكنها، لكنها أصرت على احتضانه وتقبيله، فما كان لها أن تلقيه بعيداً وهو يحمل بين طياته أنفاسه ولا زالت رائحته تسكن

في ثناياه، فآن لها أن تقذفه من بين يديها مهما كانت حرارته ومهما شاكل لونه لون حبات العنب.

قلّبت قميصه بين يديها حتى تجلّى أمامها مشهد الكبرياء وهو مقيد اليدين، معصوب العينين مخفور بين يدي قطيع من الجلادين المتعصبين، تختبئ رؤوسهم تحت قبعات سود حين اقتحموا عليه عشه فأخذوه مقيداً بسلاسل غدرهم تحت عباءة الليل يحيطون به من كل جانب، يصرخون بأصواتهم التي حنقها الرعب والخوف، وعيون الجيران والناس التي ترقبهم من خلف النوافذ لتشهد جريمتهم التي تتكرر كل يوم وكل ليلة مرات ومرات مع إنسان آخر من أبناء هذه الشعب وفي بقعة أخرى من بقاع هذا الوطن السليب.

يمشي معصوب العينين ولكنه ومن تحت غطاء عينيه يرى الرعب في عيونهم فيبتسم ويحرك رأسه قليلاً كأنه يودع أهله وأولاده وشوارع وتراب القرية.

كان يشعر ببعض الجيران يقفون على أسطح المنازل، وبعضهم يراقب ما يحدث من خلف النوافذ، ولكنه يعلم عجزهم عن نصرته فهم لا حول لهم ولا قوة، وهم أعجز من أن يخلصونه من بين أنياب الظلم والطغيان، وهو واثق كل الثقة بقدرة الله وقدره، مطمئن القلب لسُنَّة الكون، فالأيام دول، نداولها بين الناس، ودولة الظلم لا تدوم ولو عمرت سنين وسنين فنهايتها حتما إلى زوال، وهو صاحب حق مغتصب ولا بدّ أن يأتي زمان ينتصر فيه حقه على باطلهم وتمتلئ هذه البلد المقدسة بصيحات "جاء الحق وزهق الباطل."

سار بين أيديهم بخطى واثقة رغم ثقل السلاسل في معصميه وقدميه، كانوا يقودونه نحو المجهول وخلف حدود المعقول بعيداً عن مهبط الشمس الظاهر للعيان، أو حيث أمواج الرمال المتلاطمة في صحراء لا يسكنها شجر ولا بشر، استمرت في استنهاض ذاكرتها حتى أعادت عليها وطأة الحديث بكامله وكيف كانت تركض خلفه ملهوفة، تتبعه وفي قبضتها حبات عنب شديدة السواد، كانت كلما أسرعت الخطى تفلتت حبات

العنب من أصابعها وهي لا تلفت إليها، وحسبها أن تبقى قابضة ولو على حبة واحدة تضعها في فمه يبقى طعمها يتذوقها حباً وشوقاً وحنيناً مهما طال الفراق.

كانت تجدّ في مشيتها خلفهم وكان خوفهم يسرع بهم ولكنها مؤمنة بأنها أقوى منهم وأسرع وستلحق به.

كانت سيارتهم العسكرية تقف في آخر الطريق المؤدي إلى بيتها تبدو سوداء مع الليل كسرب الغربان، وصلوا به فبدؤوا يحاولون قذفه في إحدى السيارات وكان يعاندهم لإدراكه بأنها تتبعه ويريد كسب بعض الوقت لتصل إليه فتمنحه لمسة من يدها الطاهرة فيعيش على ذكراها مهما طالت الأيام.

لقد نجح في عنادهم حتى اقتربت منه كثيراً، فمدت يدها لعلها تلمسه أو تلقي في أذنيه همسة وداع، تضع بين شفاهه حبة من العنب، لكنهم صرخوا بها لكي تبتعد عنه.

قذفوه في السيارة، لحقت يدها به، فأمسكت بطرف الباب وهم يحيطون بها ويحاولون منعها بقوتهم المتغطرسة،

وبتصميم عجيب خلا من كل خوف، رفعت يدها مرة أخرى، كادت تصل شفتاه، لكن بنادقهم كانت لها بالمرصاد، فحدثتها بأعقابها وألقتها على الأرض، قاومت ضرباتهم، فنهضت دون تأوه، لكنهم أعادوا الكرة عليها فتركوها ممددة على تراب سيبقى يلعنهم أزماناً مديدة.

انهمرت دموعها كحبات بلا لون فاختلطت مع حبات العنب المبعثرة من حولها، والناس قد تقاطروا إليها بالرغم من أن الصباح لم يخلع ثوب ليله تماماً، إلا أنهم التفوا من حولها بصمت وهدوء ينتظرون بعيون نصف مفتوحة لم يفارقها النعاس بعد.

وظلت عيونها تتبعه حتى راح يختفي شيئاً فشيئاً خلف جدران الزمن المجهول، فعادت من أثره محملة بالإيمان والأمل باللقاء ولو بعد حين.

بدأت في محاولة يائسة بجمع حبات العنب كي تحفظها لتكون ذكرى لهذه اللحظة الغالية ولعلها تصمد عودته فتقدمها له على طبق الوفاء، لكن عيون المجتمعين من حولها كانت تمزقها

وتحسب عليها كل حركاتها وأنفاسها فأخرست نحيبها بل قتلته بداخلها حتى لا يشمت بها هذا الليل الخادع وما انطوى تحت ستاره من ظلم وقهر وهوان وعضت على أسنانها بأسنانها وودّت لو أنها تملك القدرة فتقضم عصا الجلاد وحبال حقده.

استجمعت أم علي قواها، فوقفت على قدميها المتعبتين، عقدت حاجبيها، ثم مررت يدها على ثوبها لتنفضه من التراب الذي علق به، بدأت بنفضه ثم أمسكت لتبقي على هذا التراب شاهداً على جرمهم إلى يوم القيامة.

عادت أدراجها تحملها أقدام أثقلها جسمها الذي تناوشته بنادقهم فهشمته، وذاقت طعم دمه وصبغت بلونه الأحمر القاني.

مر بها شريط الذكريات الطويل ببطء وهو يعرض عليها كل المشاهد التي لم تفارقها بالأساس طيلة الأيام والشهور المنصرفة، والألم يتأجج بداخلها حمماً.

والى جانب هذا الانغماس في ذكريات الماضي القريب كانت تعاودها الأسئلة عن مصيره مراراً ومراراً، لكن وقد

عرف مصيره بقيَ أن تدعو الله أن يعيده قريباً، لكن هواجسها تطاردها فتقول: هل سيعود يوماً من الأيام؟؟، نعم، ستكون رحلة قصيرة هاجر فيها وحتماً سيعود، يا الله متى يعود؟، اصبري يا أم علي واحمدي ربك على أن مصيره يختلف عن مصير الكثيرين من أبطال فلسطين فمعظمهم قضى بين شهيد ومفقود في عالم النسيان، في زمن تغطرس فيه الظالم وتجبر وأُخرس فيه المظلوم وقُهر وسلبت حقوقه، يا الله أسالك أن لا تكون قد خبأت لنا الأقدار الحال المشئوم فننسى طعم الفرح ولون المرح على مدى الأيام القادمة، لا قدّر الله، ما هذه الوساوس يا أم عليْ، احتسبي أمرك لله، إنه وحده القادر وسيجعل بعد عسرٍ يسراً، وما عليك إلا أن تنتظري حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، فالحكم حكم الله، وهو اليوم بسجنه في سجون الاحتلال يسدد ضريبة الدين والوطن ويشارك أبناء شعبه المعاناة والحرب ضد هذا الغاصب اللئيم ويذود عن عرضه وأرضه.

نعم إنه شجاع مقدام ولن ينال القيد من صبره وجلده ولن يبتاعوا منه المواقف والمبادئ.

ترفع أم علي يديها نحو السماء فتلجُّ بالدعاء كي يحفظه الله من سوء ويمن الله عليه بالثبات ويخفف عنه حكم الطواغيت ويعيده سالماً معافى في دينه وبدنه، وتختم قائلة: حسبنا الله ونعم الوكيل.

تطلقها لتعانق عنان السماء لا تعيقها المسافات الشاسعة بين السماء والأرض ولا تردّها حرارة الشمس أو ازدحام نجوم الليل.

إنه الإيمان الخالص بقضاء الله وقدره والتسليم لأمره، فهي المؤمنة الواثقة بعدالة السماء ونفاد وعد الله الصادق.

ما إن انتهت من دعائها حتى اقتحم عليها الأولاد غرفتها يسألون عن والدهم، فأجابتهم والفرحة تنير وجهها، يا أحبائي لدي خبر سيفرحكم كثيراً، فتعلقوا بها وألحوا عليها أن تسرع بإلقاء الخبر عليهم ولا تعبث بأعصابهم، فاستجابت قائلة: سيكون لنا لقاء مع والدكم الأسبوع القادم، تقدم علي قائلاً: أين هو؟ لماذا لا يأتي هو إلينا؟ قالت: انه موجود في السجن يا علي ولا يستطيع

أن يأتينا حتى يأذن الله بذلك، المهم أننا سنراه الأسبوع القادم، فقد أبلغني خالكم أن له محكمة في سجن الخليل، وأريد منكم أن تكثروا من الدعاء في كل صلاة حتى يعيده الله لنا في أسرع وقت.

تصايح الجميع، وعلت أصواتهم بالطلب بأن يحظوا جميعاً على برؤية والدهم، لكنها أخبرتهم بأنها لا تستطيع أن تصطحب معها إلى المحكمة إلا واحداً منهم، وعليه سأطرح عليكم أن نجري قرعة بينكم فمن يسقط عليه السهم فسيكون رفيقي في هذه الرحلة.

تقبل الأولاد فكرة أمهم، فأجرت القرعة فخرج السهم لعلي فطار فرحاً بحظه السعيد، ولم يفاجئ الأمر أمه فهو الأكثر بين إخوانه سؤالاً وشوقاً لوالده، ومن جهة أخرى حاولت أن تهدئ من غضب الآخرين الذين لم تسعفهم القرعة.

مرت دقائق قليلة فهدأ الجميع وأبدوا رضاهم وقناعتهم بما قسم لهم القدر، ثم قامت أم علي نحو الباب فأشارت لهم بيدها، فخرج الجميع من غرفتها، ثم أغلقت على نفسها الباب جيداً،

وتوجهت نحو خزانتها بسرعة وبلهفة الحب وجنونه أخرجت منها لفة قماش من حرير، سقطت من يدها من شدة الفرح، ثم تناولتها فبدأت تفكك عقدها حتى أخرجت مها شيئاً صغيراً، حررته على شفاها ثم احتضنته بين صدرها ويديها، وتنقلت قليلاً في غرفتها، مررت يدها على الباب فتأكدت انه مغلق تماماً، لا تريد أن يراها احد فيكشف سرها، فاطمئن قلبها وارتاحت نفسها بأنه لا أحد في هذا الكون يعلم عما يدور في مخدعها إلا رب الكون ولا ضير في ذلك فهو الستر على عباده.

تعيد الكرة تلوه الكرة منكبّه على ما بين يديها تقبيلاً والدموع منهمرة مدرارة حتى بلّت هذا الكنز الغالي على قلبها، وحتى صارت تمسح الدموع عنه بطرف كمّها، وقبل أن تعيده إلى مأمنه ألقت عليه شفتيها طويلاً حتى أحمر وجهها من حرارة القبل ودفئها، ولولا الحياء لأبقته رفيق شفاهها على طول الزمان.

أعادت حفظه جيداً في لفة الحرير وأحكمت عقدها، ثم أودعته مأمنهُ مختومة بقبلة إطارها "يحفظك الله فقد اقترب اللقاء."

جلست على كرسي في إحدى زوايا الغرفة وراحت تدفع عقارب الساعة بنظراتها، تريدها أن تسابق حركة الشمس ودورة الأرض تخاطبها بعيونها قائلة: يكفيك مشياً على مهل، آن الأوان أن تهرولي آن لك أن تخالفي سُنّة الكون وتقفزين عنها وتنقليني من زماني هذا ومن مكاني هذا إلى ذلك المكان الذي أجده فيه بانتظاري وذاك الزمان الذي سيمنحني عناقه والحديث إليه والنظر في عينيه.

وبينما هي على هذا الحال إذ غرتها وساوسها من جديد: كيف تعانقينه والناس ينظرون؟ هل سنكون وحدنا؟ كيف ذلك وقاعة المحكمة لا يمكن أن تكون فارغة تماماً، وان فرغت من الناس هل ستفرغ من الجند والمحامين والقضاة؟ لا، لا يمكن، لكن وان امتلأت المحكمة وعجّت بالناس هل هذا سيمنعني من عناقه وهو حبيبي ومهجة روحي، وهل في هذا ضير أو حرام؟ أم أنني ارتكب خطأً فادحاً إن فعلت ذلك!! ولكن هل يسمح لي حيائي بفعل هذا؟ لكنها عاطفتي التواقة هي التي ستفلت من عقال حيائي وتؤدى واجب الحب تجاهه.

لكن تبقي مشكلة كبيره، هل هو سيمنحني فرصة لعناقه وتقبيله أمام الناس؟ لا، لا اعتقد ذلك فهو المروءة عينها والحياء نفسه، وهذا يتطلب منى كبح جماح شوقي واندفاع روحي المتخمة بالحب والعواطف نحوه.

نعم سأفعل ذلك واكتفى بلمس يديه وشمَّ رائحته عن بعد، ويكفيني أن تطرب أذناي وتخشع في مهد صوته.

ظلت تنهال عليها الأسئلة وتحاكى نفسها بالأمنيات حتى ودّعت عيونها لسانها الذي لم يكّف عن الابتهال والتسبيح، وغارت عيونها في نوم عميق حتى طلع فجرها الجديد.

تعاقبت عليها الأيام والليالي تقربها من لقائها المرتقب ببطء عجيب فبالرغم من قلة هذه الأيام والليالي إلا أنها كانت أثقل عليها من شهور وسنين.

تقترب الأيام بها نحو المستقبل الموعود حتى حطّت بها على شرفة ليلة الاثنين، الليلة الأخيرة قبل يوم محكمته.

فعندما أطلقت مئذنة المسجد العنان لحنجرة أبي محمود لينادى لصلاة العصر من يوم الاثنين، كانت حينها أم على في بيت أختها شريفة تستقبل مكالمة هاتفية من مكتب الصليب الأحمر (دائرة الخليل) تخبرها أن يوم غد الثلاثاء، سيمثل زوجها (أبو علي) أمام محكمة عسكرية في سجن مدينة الخليل، وذلك في تمام الساعة العاشرة صباحاً، وبإمكانكم حضور جلسة الحكم ولكن دون مرافقة الصغار مادون سن السادسة عشرة فهذا ممنوع منعاً باتاً حسب القانون الإسرائيلي.

كانت تستقبل المكالمة وتباشير الفرح ترتسم على وجهها تنفضح عواطفها المتدفقة نحوه، وشريفة ترى ذلك بوضوح فتجيء عيونها تحت الرموش خلسة منها، نظرة بعد نظرة، وعلى الرغم من فرحتها إلا أن أم على راحت تفكر بولدها الصغير علي الذي وعدته باصطحابه إلى محكمة والده وكان قد فاز من بين إخوته بالقرعة، ماذا ستصنع معه الآن، كيف سيتم إرضاؤه وإقناعه.

تدخلت شريفة لتقطع صمتها قائله: ما بالك يا أختاه صامتةً! لا تقولي أنك غير سعيدة برؤيته غداً، أم أن أمراً ما يشغل بالك.

أم على: الحقيقة يا أختي لقد أبلغني الصليب الأحمر الآن أنه يُمنع اصطحاب الصغار إلى المحكمة.

شريفة: فماذا يعنى ذلك؟ وهل أنت صغيرة حتى تُمنعين من حضور الجلسة، فامتلأ البيت بضحكاتهن فلما هدأت قليلاً.

قالت أم على: لا لا، يا أختاه لست أنا المعنية.

قالت شريفة: من إذاً؟

قالت أم على: إنه علي الذي وعدته بذلك، وأنت تعلمين كم هو متعلق بوالده وكم ينتظر مثل هذا اللقاء، أكيد سَيَجُنُ جنونه.

شريفة: لا عليك لن يجن، وأنا التي ستعالج هذا الأمر.

أم على: ماذا ستصنعين؟

شريفة: سأذهب الآن معك إلى البيت، وسأقنعه بأن يأتي معي للنوم عندي وغداً سأصحبه إلى السوق واشترى له ألعاباً فأرضيه لا تقلقي من هذا.

أم علي: جزاك الله عنا كل خير، لكن هل تعتقدين أن علي يتقبّل هذا ويتنازل عن رؤية والدة. شريفة: لا عليك هيا بنا.

خرجت الاثنتان من بيت شريفة وخلال الطريق ذهلت أم على بفكرها إلى حيث زوجها وبقي جسدها يرافق شريفة، راحت تتساءل عن تلك اللحظة التي ستراه فيها وهاجمتها الأسئلة الكثيرة فما انتبهت إلا وشريفة تلطمها على ظهر يدها بلطف.

وقالت لها: يا أم علي النساء يلقين عليك التحية، وأنت لا تسمعين، شاردة الذهن لا تلقين بالاً، ما دهاك؟، تماسكي حتى نصل البيت وهناك شرقي وغربي بفكرك كما تشائين.

قالت أم علي: آسفة يا أختاه لا تؤاخذيني ليس الأمر بيدي.

دقائق معدودة كنّ يقفن على عتبة بيت أم علي، وما كدن يطرقن الباب حتى استقبلهن علي سائلاً عن والده ومتى سيذهبون إليه.

أخذته خالته شريفه بعين يدها فمسحت بيدها على شعره وهدهدت على ظهره حتى سكن قليلاً، ثم خرجت به إلى خارج البيت، فجلست على كرسي أمام البيت وهو يقف بين يديها تهزه هز العصفور للغصن.

بدأت تحدثه عن والده وتصف له شوقها الكبير الذي يغمر قلبها لرؤيته، تحدثه وهو ساكن يسمع خالته بكليته حتى عيونه كانت تنقُلْ إلى أذنيه ما لم تتداركه من إشارات يديها وحركات حاجبيها. شعرت شريفه أن علي أطمأن لحديثها وصدق مشاعرها، ورأى أنها تشاركه ألمه على فراق والده، فأسلم نفسه لها.

ثم تابعت قائله له: يا علي أنت تعلم أن طاعة الوالدين جزء من طاعة الله، وأن العقوق كبيرة من الكبائر التي حرمها الله علينا.

قال: صحيح لقد علمني والدي هذا من قبل.

قالت: إذن أنت لا يمكن أن تعصي الله، حتى لا يعذبك الله.

قال: لا، لا أريد أن أدخل النار، أنا أريد دخول الجنة.

قالت: إذن عليك طاعة والدتك في كل ما تأمرك به، إلا في أمرٍ يحض علي معصية الخالق فهنا عليك مخالفتها.

علي: نعم يا خالتي، سأطيعها في كل شيء، لكن يا خالتي لماذا كل هذا الكلام؟ فأنا لم أخالف لوالدتي أمراً من قبل، لماذا تحدثينني عن الطاعة في هذا اليوم؟

قالت: اعلم يا بني انك ولد طائع وتسمع لأمك، لكن الأمر الذي دفعني للحديث معك هكذا هو.. هو.. أنك لن تذهب مع أمك إلى والدك غداً.

انفجر علي بالبكاء مباشرة، حاول الفرار من بين يديها، فأطبقت عليه بجناحيها ووضعت رأسه بين كتفها وعنقها حتى هدأ تماماً.

ثم قالت له: يا بني ليس الأمر بأيدينا فهذا ممنوع من اليهود، لا يسمح للصغار حضور جلسات المحاكم، وأنت اليوم ستذهب لتنام عندي، وغداً نذهب سوياً إلى السوق فأشتري لك ألعاباً وملابس وكل ما تريد.

قال: لا أريد شيئاً أريد فقط والدي.

قالت: إذن أنت تريد معصية والدتك وغضب الله عليك وقد يزعل عليك أبوك عندما تحدثه على صنيعك هذا.

قال: لا يا خالتي لكنني أريد رؤية والدي قبل كل إخوتي.

قالت: إن شاء الله سيعود قريباً إلى البيت وستكون أول من يراه وسأحدثه عن حبك له.

قال: "خلص" يا خالة سأذهب معك.

فرحت شريفة بسماع الموافقة من علي ورأت أنها قدمت لأختها شيئاً من الواجب بفعلها هذا، ثم أمرت علي بالذهاب لإبدال ملابسه ووداع أمه، ودخلت هي إلى أختها فلاقتها تحرير.

فسألتها عن أمها فأشارت تحرير بيدها نحو غرفة والدتها فأدركت شريفة أن أختها أم علي خلت بنفسها ولا تريد أن يزعجها أحد.

قالت شريفة: تحرير، بعدما تخرج أمك من غرفتها أخبريها أن علي ذهب معي حسبما اتفقنا.

قالت تحرير: إن شاء الله يا خالة سأبلغها.

فخرجت شريفة وبصحبتها علي، وبقيت تحرير تنتظر أمها ساعات فلم تخرج عليهم، فخشيت على والدتها فطرقت عليها الباب ثلاثاً ولا مُجيب فراودتها نفسها أن تقتحم على أمها مخدعها، لكنها أدركت أنها بهذا تقدم على المحظور شرعاً وعرفاً.

وبعد أن فكرت قليلاً رأت أن تمنح أمها ساعة أخرى فانقضت الساعة كلمح البصر ولم يُفتح باب الغرفة، فتوجهت إلى الباب مرة أخرى فطرقته ثلاثاً دون مجيب، فنادت بصوتها على إخوانها، فتجمعوا من حولها، فأخبرتهم بالأمر.

تشاوروا بينهم وبعد جدل قصير، خلصوا أن يدخل أصغرهم ليري ما حلّ بوالدتهم، اختاروا تهاني لهذه المهمة.

اقتربت تهاني من الباب فطرقته للمرة الأخيرة لعل أمها تخرج إليها لكن الوضع لم يتغير، فأمسكت بيد الباب فإذا هو مفتوح فتقدمت خطوات، ثم وقفت مُدهَشَة، فأشارت لإخوانها فدخلوا خلفها، فدهشوا جميعاً، وخيم عليهم الصمت، حتى نطقت تحرير بصوتها المتهدج، فقالت: إذن أين أمي؟ أين ذهبت؟ كل هذه الساعات وأنا أظنها داخل غرفتها، إلى أين يمكن أن تكون قد ذهبت؟ ها هو الليل بدأ يسدل ستائره.

قاطعهم سيد قائلاً: لعلها عند الجيران أو ذهبت إلى بيت من بيوت أقاربنا

قالت تحرير: إذن يذهب كل واحد منا إلى بيت من بيوت الأعمام والأخوال لنبحث عنها.

عن من ستبحثين يا تحرير؟

التفت الجميع وصاحوا معاً، أمي أمي، التفوا من حولها والعيون رقراقة بدمع الفرح، فانكبوا يقبلون يديها وقدميها، وهي مندهشة من صنيعهم، فأخذتهم إلى حضنها كما يظلل طائر "الشنار" أفراخه بجناحيه من البرد والخوف الذي يحوم بهم.

صمت الجميع لمّا أحسوا بدفء حنانها يتسلل إلى أعماقهم صمتوا إلا صوتها الناحب يقول: ما بكم يا أحبائي؟ ما جرى لكم؟ هل بحثتم عني؟ قالت تحرير: نعم يا أمي، منذ ساعات ونحن نبحث عنك، وكنا نظنك داخل الغرفة، قالت أم علي: كنت على السطح أراقب الليل وهو يغزو النهار وكنت أرفق على الشمس وهي تغوص في أعماق المجهول وأرى سنَّة الكون التي تتكرر منذ الأزل، نهارٌ يفرُّ من سطوة ليل بهيم وهذه النجوم الصغيرة كيف تهاجم شمساً بهذا الحجم فتطردها عن عرشها فتحل محلها، صدق جدكم عندما كان يقول لنا: "يا بنيَّ اعلموا أن يد الله مع الجماعة وان الكثرة غلبت الشجاعة "هذه هي سنَّة الله في الكون ولن تجد لسنّة الله تبديلاً ولن تجد لسنّة الله تحويلاً.انتبهت أم علي

لعدم وجود علي بين الأولاد فعلا صوتها أين علي أجيبوا؟ أين علي؟

قالت تحرير: لا تنزعجي يا أمي، لقد ذهب مع خالتي شريفة.

قالت أم علي: شريفه، صحيح لقد جاءت معي ساعة العصر، أين هي؟ متى ذهبت؟

قالت تحرير: لقد ذهبت منذ زمن وتقول لك أنها أخذت على حسب اتفاقكم.

انفردت أم علي عنهم وبسمة صغيرة تشق فاها فهمست لأذنيها، يا شريفة لا يعجزك شيء! كيف استطعت إقناع هذا العنيد؟! والله إنك تملكين لساناً ساحراً ودهاءً يُبهر، هكذا أنت من صغرك.

بعد هذا الإطراء الخفي لأختها شريفة، طلبت من ابنتها تحرير وضع الطعام لإخوانها ومن ثم ترتيب البيت، وأن تحرص على أن ينام الجميع بعد أداء صلاة العشاء، ودخلت هي غرفتها مغلقة الباب خلفها، ومن ثم خلعت نعلها وألقت سجادتها على

الأرض مستقبلة الكعبة المشرفة وراحت تسبح في رحمة الله، متهجدة مبتهلة ضارعة إلى ربها أن يحفظ لها زوجها ويخفف عليه حكم الطغاة وظلمهم.

ظلت تتقلب على سجادتها بين دعاء وصلاة وتلاوة لكتاب الله وخاصة سورة "يس" لعلمها بفضلها ساعة النوازل واحتدام الكربات.

قامت بين يدي ربها حتى تعبت قدماها، فما انتهت إلا وعقارب الساعة توخزها منذرة ببزوغ الفجر، حيث أن تلك العقارب كانت تطرق أبواب الساعة الثالثة فجراً.

قامت عن سجادتها، فألقت جسدها على سريرها تريحه قليلاً حتى تلقاه غدا وهي بكامل نشاطها ونضارة وجهها.

أغمضت عينيها فأبت متمردة على النعاس معلنة العصيان، حاولت جاهدة غصب عيونها على ذلك ولكنها فشلت، فأعصابها كانت تصارع الليل وعتمته، وظلت على هذا الحال حتى صدح أذان الفجر، قامت إلى سجادتها فادت صلاة الصبح ثم جلست

تتلو القرآن، وتدعو حتى أشرقت الشمس، وضج البيت بأصوات الصغار إلا علي الذي افتقدت صوته البريء وغاب عن البيت.

بعدما استعد جميع الأبناء من أجل الذهاب إلى مدارسهم توجهوا إلى والدتهم فطبعت على وجناتهم قبلاتها وهم بادلوها القُبل وزادوها قبلة وتحية لوالدهم ومن ثم خرجوا ترعاهم رعاية الله كأنهم سرب حمام انطلق تحت دفء النهار نافضاً أجنحته فرحا للحياة.

تتبعهم ببصرها حتى غابوا خلف الأبنية والبيوت المزدوجة على جانبي الشارع، فأرسلت خلفهم "تحويطتها" قائلة: يحفظكم الله من عين كل حاسد.

نظرت إلى ساعتها فوجدتها تهرول مسرعة تطوي دقائقها طياً فراحت تتجهز وقد شابها شيء من التخبط والارتباك، لبست ثوبها المطرز بأزهار برية وعناقيد صغيرة من العنب المدّلى، ثوب خيط بحرير يمنيْ زاده بهرجاً وبريقًا.

وقفت أمام المرآة تنظر إلى نفسها فهالها ما رأت، فتساءلت كيف لها أن تلبس مثل هذا الثوب؟ فما هي بذاهبة إلى عرس أو حفلة لأحد من أقاربها، وبالرغم من أنها ذاهبة لتلتقي توأم الروح ورفيق العمر، إلا أنها قررت خلع هذا الثوب المزركش، وأن تلبس جلبابها الأسود الفضفاض وحجابها الذي يمنع حتى الهواء أن يعبث بضفائرها.

لبست نعلها وعلّقَت شنطة صغيرة على كتفها وخرجت باسم الله نحو مبتغاها.

قبل أن تصل موقف السيارات كان أخوها "محمد" بسيارته ينتظرها قريباً من بيتها، فلما اقتربت منه ألقت عليه التحية، وسألته عن هذه الصدفة التي جمعتها معه.

فقال لها: ليست الصدفة، بل علمت البارحة من زوجتي عن موعد المحكمة فجئت كي أقلك بسيارتي.

قالت له: جزاك الله كل خير، الحقيقة أنك "هوّنت" عليّ عناء السفر والتنقل من سيارة إلى سيارة الأمر الذي قد يؤخرني عن موعد المحكمة.

قال: هذا أقل ما يمكنني أن أعمله من أجلك وأجل أبي علي.

انطلقت بهم السيارة نحو مدينة الخليل والساعة قد تجاوزت الثامنة والنصف صباحاً، ولم يبق على اللقاء المنتظر إلا ساعة ونصف الساعة

اقتربت السيارة بهم من منطقة بئر المحجر "مدخل مدينة الخليل من الناحية المحاذية لقريتهم"، وصلوا هناك فإذا بحاجز عسكري لجيش الاحتلال الإسرائيلي قد أغلق المنفذ إلى المدينة، ويمنع دخول أي شخص أو سيارة إلى المدينة.

عندما رأت الحاجز والجنود على جانبي الشارع، وضعت يدها على صدرها وأطبقت شفتيها ولم تنبس ببنت شفة.

تقدمت عجلات السيارة ببطء السلحفاة حتى صارت بين الجنود، فتقدم أحدهم نحو محمد سائلاً: إلى أين؟

قال: إلى المدينة "الخليل".

قال الجندي: هذا ممنوع، ارجع "ما سمعت أن اليوم منع تجول".

قال محمد: لكن، فقاطعه الجندي قائلاً: قلت ارجع وإلا! ورفع بندقيته مهدداً إياه.

نظر محمد إلى أخته فرأى عيونها التي اختفت خلف عقد حاجبيها، فلم يكلمها، بل أدار دولاب السيارة نحو الجهة اليمنى من الحاجز، فأمسكت بيده أم علي وقالت: إلى أين أنت ذاهب؟

قال: لا تقلقي أعرف طريقاً ترابياً فرعياً قد نصل من خلاله إلى مركز المدينة.

قالت: الله يسهل، سر على بركة الله.

انطلقت السيارة بسرعة فائقة تشق "كروم العنب والخوخ والبرقوق" ليلتف من خلف مستشفى الأهلي الكبير المتربع على قمة تله تطل على المدينة من الناحية الشمالية الغربية.

مضت نصف ساعة والسيارة تقطع بهم الأودية والسهول حتى وصلوا نهاية الطريق فكانت المفاجأة، سيارة جيب عسكري تغلق الطريق تماماً، فأسقط في يد محمد، فألقى رأسه على الدولاب محوقلاً ومتحسباً واليأس مطبق قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم لقد أغلقت أمامنا الأبواب، احتسبي أمرك إلى الله يا أختاه.

قالت: لا ليس بعد، لم تغلق كل الأبواب، وفتحت باب السيارة بعدما ألقت عليه تحيه الوداع وقالت: سأذهب سعياً على قدمي مهما بعدت المسافات، لا بد أن أراه اليوم وإلا سأجنّ.

حاول أخوها محمد منعها من فعل ذلك مخوفاً إياها بأن المدينة تخضع لمنع التجوال وقد يلحق بها ضرر عظيم إن مسكها جنود الاحتلال.

حاول جاهدا ثنيها عما عزمت عليه، لكن إصرارها وتصميمها كانا أقوى منه فدعا لها بالسلامة والتوفيق.

انطلقت أم علي هائمة على وجهها بين حقول العنب والخوخ التي تغطي مساحات شاسعة من أراضي مدينة الخليل.

انطلقت تطوي الأرض طياً وتسابق عقارب الساعة التي أوشكت أن تطرق أبواب الساعة العاشرة صباحاً.

بعدما أجهدت البحث عن منفذ يقودها إلى داخل المدينة يكون خالياً من جنود الاحتلال، وبعد تعب وعناءٍ هداها الله إلى ممر ضيق قريب من قرية تفوح المتاخمة للمدينة، أوصلها إلى شوارع المدينة الرئيسية، فبدأت تنتقل من شارع إلى شارع ومن حي سكني إلى آخر، تختبئ خلف خوفها من عيون الجند الذين انتشروا في شوارع المدينة كالوحوش في عمق الغاب.

كانت شوارع المدينة خالية تماماً من الناس إلا أنها تعج بالجنود مما دفع أم علي أن تبقى بحذرها الشديد وعلى حيطة عالية حتى لا تكون فريسة لهؤلاء الطغاة، تابعت سيرها نحو هدفها

تنتقل من حارة إلى أخرى حتى وقفت أمام بناية قديمة ضخمة كتب على وجهتها الأمامية "سجن الخليل المركزي" فعرفت أنها وصلت مبتغاها، نخفق قلبها وضربتها رعدة انتفض منها جسدها كما العصفور بلّله القطر.

استعانت أم علي بالله ليثبت أقدامها التي كانت تهتزّ من سطوة التعب، وتقدمت على مهل نحو أحد الجنود كان يقف أمام بوابة صغيرة على جانب البناية، بدا علية وكأنه حارس في وظيفته.

وقفت أمامه فسألته عن قسم المحاكم في هذا السجن، فأشار لها بيده باتجاه شارع فرعي من الناحية اليمنى للسجن، فانطلقت مسرعة حتى أقبلت على بوابة صغيره يقف تحت قوسها حارس بندقية تعلو رأسه لوحة حديديه كتب عليها باللغات الثلاثة العربية والانجليزية والعبرية / محكمة سجن الخليل العسكرية.

أقبلت على الحارس فلما دنت منه أشار عليها بيده أن توقفي، وقفت مكانها مخاطباً سائلاً ماذا تريدين؟

قالت: أريد الدخول إلى قاعة المحكمة.

الحارس: لماذا؟

قالت: اليوم سيمثل زوجي أمام القضاة.

الحارس: أعطني هويتك، وانتظري هنا حتى افحص الأمر.

أعطته هويتها ثم سألها، ما اسم زوجك؟

قالت: محمد من قرية بيت كاحل.

قام الحارس بفحص الموضوع عبر الهاتف، ثم التفت إليها قائلاً، لكن هذا الرجل مَثُل أمام القضاة في تمام الساعة العاشرة صباحاً، فسقطت هذه الكلمات عليها كأنها صاعقة فارتجفت ونظرت إلى ساعتها والتي لم تنظر إليها منذ أن فارقت سيارة أخيها محمد فإذا هي تقترب من الثانية عشر ظهراً فجثت على ركبتيها وعلا نحيبها.

تقدم نحوها الحارس فمد يده محاولاً رفعها عن الأرض فنفضت يده بقوه، فأحست منها بسخونة البغض ومرارة القهر والكراهية لهذا العدو البغيض.

وقفت أم علي على قدميها، تناولت هويتها من يد الحارس وعادت أدراجها بخطى يائسة والدموع هطّالة من محاجرها سائرة هائمة على وجهها، تائهة بفكرها حتى وصلت وسط المدينة التي عجّت بحركة السيارات والناس الذين انتشروا في شوارعها بعدما رفع عنها حظر التجوال في تمام الساعة الحادية عشرة صباحاً.

كانت أم علي تتهادى في مشيتها فقد أعياها التعب وأضناها السير على قدميها منذ الصباح.

توجهت نحو السيارة في الموقف (في مركز المدينة) فطلبت من سائقها أن يقلها إلى قريتها بأي أجر يريده.

لم تمض خمسة عشرة دقيقة حتى كانت أم علي تقف أمام بيتها وكان جميع الأولاد والبعض من الأقارب في انتظارها.

أقبلت عليهم وحالتها تنبئهم خبرها، ألقت عليهم التحية مقتضبة ولم تسمح لأحد منهم بالبدء بالأسئلة بل تابعت قائلة: وصلت المحكمة في ساعة متأخرة ولم أشاهده، حسبنا الله على الظالمين، فاتركوني وشأني.

دخلت غرفتها فصبت جامَّ غضبها على حظها الذي لم يسعفها كعادته وألقت جسدها على سريرها وتركت لرموش عينيها تستحمّ دون قيود في ماء عينيها الطاهر.

بينما هي على هذا الحال هاجمتها هواجسها لتتساءل عن السعادة وكيف هجرتها في هذه الدنيا، وكأنها حُرّمت عليها دون خلق الله جميعاً، لكنها تتدارك أن مصابها هو مصاب الكثيرات من نساء وأمهات هذا الوطن السليب، فالاحتلال لم يترك للسعادة والفرح مهجعاً في هذه الديار، فقد اقتحم الحرمات وداس طهر البيوت وعفافها فقطف البسمات من على شفاه الصغار والكبار، وتركها قاحلة جافة كما يترك الجراد أرضاً حل بها فتركها محروقة جرداء بعدما كانت تنبض بالخضرة والحياة.

آه يا أم علي إنها الأقدار ترحل بك نحو المجهول، لكن لا اعتراض على أمر الله وقدره، فلن يضيعك الله ولن يخذلك وتذكري قول الحبيب وهو يقول "كن مع الله ولا تبالي".

بهذا الاطمئنان التام والتسليم الكامل لأمر الله، بدّدت غضبها واستقوت على ضعفها فخرجت على أبنائها لتبقي في عيونهم القوية الصابرة المحتسبة في سبيل الله ورضاه.

خرجت إلى أولادها فوجدتهم قد تجمعوا في غرفة الضيوف، وقد حل الصمت ضيفاً عليهم، فألقى بظلاله الكئيبة، فرأتهم وكأن على رؤوسهم الطير.

دخلت إليهم وبسمة الألم تحيتها، قفز إليها علي فاحتضنته بدفء الأمومة، ثم قام الجميع يقبلونها حتى انسوها شيئاً من قهرها وألمها.

جلست بينهم تقصّ عليهم رحلتها في يومها العصيب هذا فما انتهت من حديثها حتى هطلت العيون بالدموع، وخرّوا سجَّداً أمام عنفوانها وبطولتها وكبريائها.

كان كل من الأولاد قد اخذ لرأسه موقعاً من أطراف أمه فأسنده إليه، وهي تمرر يديها عليهم دون كلل او ملل، وتنتقل موجات من مشاعرها وأحاسيسها الملتهبة عبر أصابعها تبثها إلى

أعماقهم حتى ظهر ذلك جلياً واضحاً عندما (أضاءت وجوههم حمرة تشبه ضوء شمعة خافت في مشكاة، والمشكاة في جوف صومعة احتضنها بطن وادٍ سكنها راهب مُتبَتِّل في زمن سحيق).

كان الدفء قد احتضن الجميع فلم يشعروا بعقارب الساعة التي كانت تنهي رحلة النهار المتعبة وتقترب لتسكن إلى ليلٍ هادئ لتكمل دورتها فيه دون ضوضاء وضجيج.

مرَّ الوقت دون شعور منهم حتى انتبهت أم علي لهذا فقامت مع صغارها فأدوا صلاة العشاء جماعة ثم تفرقوا كلٌ إلى فراشه وانفردت هي لغرفتها، لتعيد شريط الأحداث التي لم تفارقها للحظة.

وقبل أن تغمض عيونها وتسلم نفسها للنوم، قامت إلى خزانتها فأخرجت "لفة القماش" مباشرة إلى شفتيها وطبعت عليها قبلة ثم أطلقت من أعماقها "آه" نثرت عجاج حسرتها فملأت زوايا الغرفة.

اندست بهدوء تحت لحافها وهي تحتضن"لفة القماش" وراحت تغط في نوم عميق صحبها حتى اقتحمت سهام الشمس مخدعها، فدغدغت وجنتيها وهمست لجفونها فتفتحت العيون كزهرة النرجس تلامسها الشمس دفئها لتطرد عنها برد الليل الذي كساها بسربال الندى فتعود إليها الروح، كلما تنفسّت تدحرجت عن سفحها قطرات الندى وانتشر عبقها وأريجها ليملأ الكون بلون الحب يرتشفه العشاق، ولو تناقلتهم عقود الزمن من عشرية إلى عشرية حتى الأربعين ولو اشتعل الرأس شيباً.

حركت أشعة الشمس جسدها المنهك حتى الشلل، فدبت الحياة فيه من جديد، فنهضت من فرشها مباشرة نحو خزانتها فأودعت سرها مأمنه، ثم خرجت تستقبل يوماً جديداً يضاف إلى أيام غربتها في واقع مرير فرضته عليها الأقدار.

وقفت أمام البيت، فسقط بصرها على "دالية العنب" فرأت براعمها التي بدأت تشق الأعواد اليابسة فتبرز مغمضة نواتها، إنها الحياة تتجلى في هذا المشهد الرباني الجميل، فتساءلت: أهي الصدفة قادتني لأشاهد هذه القدرة الربانية وهي تخرج الحي

من الميت كما تخرج الميت من الحي؟ ولكن أي صدفة؟ أيوجد في عقيدة المؤمن مذهب يدعى مذهب "الصدفة"؟! وهل يجري هذا الكون بالصدفة والتلقائية كما يزعم أصحاب النظرية العبثية واللانهائية أمثال "داروين".

لا أم علي: إنها الأقدار التي ساقتني في هذا الصباح إلى هذا الموقع، والى هذا المشهد الرباني العظيم ليوحي إليّ من خلال هذه البراعم أن الإرادة الربانية قادرة على كل شيء.

فهي قادرة على أن تعيد الغائب من عالم المجهول مهما بعدت بها المسافات أو ألقته الأيام بعيداً خلف البحار والمحيطات، فها هي الحياة تدب من جديد في عيدان قد يبست وتشققت تحت سطوة الحر والجفاف، فأورقت واكتسبت خضرة ونضارة.

نعم فكما أن لكل أجل كتاب، فإن لكل ميلاد جديد ميعاد، إنها الأقدار تعلمني درساً جديداً في الحياة، عنوانه الصبر على قضاء الله حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

تقدمت أم علي خطوة إلى الأمام فوضعت يدها على البراعم الرضيعة، فلم ترفع يدها حتى تحرك بداخلها الصراع الخامد مع عناقيد العنب، فتعجبت قليلاً من السرعة التي تطوي بها الأيام تدور دورتها في هذا الزمان دون تعيد لها روحها، لا يشبهها إلا غيمة صيف بيضاء تطوف السماء والفضاء سابحة في مدارها ثم تختفي دون خراج.

رفعت رأسها فنظرت نظرة في السماء فرأته وقد تجلى رسماً على وجه غيمة، فأشارت إليه بحاجبيها، ثم خاطبته بخيالها مستفسرة قائلة: أما آن لك أن تعود، قبل أن تنضج هذه البراعم الصغيرة فتصير جمراً يحرقني من جديد.

لماذا تطير بعيداً في سماء لا تعرف الحدود؟

وتتركني أسيرا بأرض ضاقت عليّ بما رحبت حتى ضاقت عليّ نفسي.

هل تعلم!!!!

أنا لا أعلم في هذا اليوم من منّا يحتاج لصاحبه أكثر، أنت الذي لا يعرف مكانك اليوم إلا الله تعالى ثم أنت... أم أنا التي لا يعرف ما يتأجج بداخلي وما يحوم في خلدي إلا الله تعالى ثم أنا.

أم نحن الاثنين يحتاج بعضنا إلى بعض بنفس الدرجة وبنفس القيمة.

أجبني، لماذا تظهر في السماء العالية فجأة، ثم تختفي دون أن تلقي تحية أو تسقط قبلة لتروي شفاها عطشى، أم أنك وافقت فلسفة القدر وتصاريفه في ابتلائي وعذاباتي، لا يحق لك فعل هذا يا نبض روحي.

يقطع علي خلوتها وشرودها بندائه، أمي فأجابته بارتباك: نعم نعم، علي ماذا تريد؟ منذ متى تقف هنا؟، قال: " زمان لمّا صرتِ تحكي مع السما".

تبسمت أم علي ثم قالت: "أحكي مع السما"... آه لو تدري يا بني مع من كنت أتكلم لزاحمتني عليه.

قال: متى ستذهبين إلى أبي مرة أخرى؟

قالت: والله لا أدري "اليوم بنروح" إلى بيت خالتك شريفة لنتصل بدائرة الصليب ونستفسر عن أبيك.

بعدما استوت الشمس في كبد السماء وصار الظل تحت قدمي صاحبه خرجت أم علي وبصحبتها عليْ متوجهين إلى بيت شريفة وبينما هم في الطريق التقت بهم "نهلة" (وهي صديقة أم علي الوفية وكان زوجها رفيق درب زوجها، وقد اعتقلته قوات الاحتلال الإسرائيلية مع زوجها، وهو يواجه نفس المصير).

التقت بهم نهلة وسط الطريق، فتعانقتا عناق المشتاقتين ثم تبادلتا أطراف الحديث عن البطلين القابعين خلف قضبان البغي.

وخلال هذا اللقاء أبلغت نهلة أم علي أنه سيكون لزوجها محكمة عسكرية يوم الأحد القادم وسيكون معه أبو علي لأن ملفهم القضائي واحد ومتشابه تماماً.

أمسكت أم علي يد نهلة وشدت عليها قائلة: أأنت متأكدة مما تقولين؟

قالت نهلة: كل التأكيد هذا ما أخبرني به المحامي.

أم علي: جزاك الله عنا كل الخير، والحمد لله جمعني بك في هذه الساعة المباركة، فقد أدخلتي السرور إلى قلبي ووفرت علي الكثير، الكثير.

نهلة: إذن، يوم الأحد وفي تمام الساعة الثامنة صباحاً سأكون بانتظارك في موقف السيارات حتى نذهب سوية.

قالت أم علي: على بركة الله، اتفقنا.

تعانقتا ثم افترقتا والبسمة لم تفارق عيونها وشفاهها، لم تقطع أم علي زيارتها لأختها شريفة بل تابعت طريقها حتى دخلت عليها ففرحت بقدومها وازدادت فرحاً عندما أخبرتها بلقائها بصاحبتها نهلة وما أخبرتها به عن زوجها، وأن يوم الأحد سيكون لقاؤهما "بإذن الله".

أنهت أم علي زيارتها على عجل وعادت إلى بيتها لتبدأ الإعداد لتلك اللحظة التي انتظرتها منذ شهور، وحتى لا تضيع كما ضاعت قبل أيام.

كانت أم علي تدفع الوقت وتقطعه، بانهماكها بالعمل البيتي وتشغل نفسها كثيراً مع الأولاد، وساعدتها الأيام التي سارت بها بسرعة العاشق إلى معشوقه، حتى هلّ عليها هلال ليلة الأحد، وما اقترب انتصاف الليل حتى كانت جاهزة كل الجهوزية وكانت نفسيتها مرتاحة جداً ومتفائلة للغد، وما بقي عليها إلا أن تلقي سجادتها في محراب مهدها وتقف متهجدة بين يدي الله.

ففعلت وراحت تسبح بروحها في بحر الدعاء والابتهال حتى طلع عليها الصباح بثوبه الأبيض الفضفاض مختلطاً بصفرة الشروق، صباح لا يشبهه إلا عروس بكر تتلفع بثوبها الأبيض المسدول، وجمال وجهها الوضاء الذي صبغته ومضة من نور.

إنه الصباح الموعود رأته ينشر ضياءه فيزيل بصمات العتمة من كل زوايا المعمورة، فسارعت ترتدي جلبابها وألقت على كنزها المخبوء قُبلةً من بعيد، أرسلتها على أطراف أصابعها بعدما جمعتها كوردة مغمضة ثم نثرتها بصحبة نفسها العاشق.

خرجت من غرفتها فإذا الأبناء جميعاً قد اصطفوا لوداعها فبادرتهم التحية فردُّوا عليها بأحسن منها، ثم حمَّلوها قبلاتهم لوالدهم.

وضعت قدميها على عتبة الباب فقالت "باسم الله، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في المال والأهل والولد، اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر ومن كآبة المنظر وسوء المنقلب"، ثم توجهت نحو موقف السيارات، فوجدت صاحبتها "نهلة" بانتظارها.

ركبتا سيارة أقلتهما إلى وسط مدينة الخليل ومن هناك استقلتا سيارة أخرى إلى مبنى المحكمة.

مع التاسعة والنصف صباحاً كنَّ في باحة المحكمة، تقدمن نحو موظف يقف على بوابة المحكمة فأسلمن الهويات ثم دخلنّ إلى قاعة المحكمة التي كانت تعجُّ بالناس الذين حضروا لرؤية أبنائهم.

جلستا متلاصقتين، فأحسّت نهلة بجسم رفيقتها يرتعش ودقات قلبها تتسارع حتى رأتها تهزّ الجلباب هزّاً.

فقالت نهلة: ما بك؟ (ألهذه الدرجة أنت متوترة)؟، تماسكي واهدئي فالناس من حولنا.

قالت أم علي: صدقت، لكنه الخوف من المفاجأة.

نهلة: أهو الخوف أم نار الشوق والحب تستعر في أعماقك، فوكزتها أم علي بأطراف أصابعها وهمست في أذنها [بلا تعليق].

نظرت أم علي من حولها، والناس يحيطون بها من كل جانب، فحدثت نفسها كيف سأسلم عليه؟ كيف سأتحدث إليه؟ أم أنني سأكون ضعيفة أمام عواطفي الثائرة، ضعيفة كوجه الأرض، هشّة تمزقها عيون بركان ضاق به باطن الأرض فاندفع حمماً نحو السماء بسرعة الصاروخ.

غابت أم علي عن الوجود ورحلت إلى عالمها الغيبي تحاكي نفسها فاتجهت إليها نهلة فوكزتها، وقالت: استعدي إني أسمع صوت السلاسل قادمة من خلف الأبواب.

أطرقت أم علي هنيهة، فسمعت رنين السلاسل المتقطع قادمٌ إليها يشبه صفير الريح المتسلل من شقوق النوافذ ومن تحت الأبواب.

كلما ارتفع صوت السلاسل معلماً باقترابها، كانت دقات قلبها تتسارع وبصرها قد تلبّس يد الباب لا يزيغ عنها.

تحركت يد الباب، فانتصبت هي على رجليها، فُتح الباب فُتحةً صغيرة ثم أغلق من جديد، لكن ظهر منه نصف وجه وعينان وشيءٌ من أسفل الجبهة فصاحت، انه هو، هو يا نهلة انه قادم، فأمسكت بها صاحبتها وذكرتها بأن تتمالك نفسها فالناس من حولها.

جلست أم علي تتمتم، وماذا يريد الناس مني، وهل أنا أسيرة نظراتهم؟ وهل عليّ أن أراعي مشاعر الناس دون أن يراعوا هم مشاعري وعواطفي.

كانت نهله تسمع أنينها وتمتمتها فقالت لها: اصبري يا صاحبتي وتجلدي، الآن سيدخل القاعة (وتشبعين من رؤيته)

قالت أم علي: أنت تحلمين لست أنا التي تشبع من "روحها وحبها"، ما تعاقب الليل والنهار وما أبصرت عيوني النور وإن سكنت لا قدّر الله فسأبقى أبصره بقلبي ما دام ينبض بالحياة.

قالت نهلة: يا نيالك يا أبا علي.

قالت أم علي: ألا ترين أنهم تأخروا بهم؟ أين ذهبوا بهم؟

فهاجمتها هواجسها مره أخرى، وراحت تضرب أخماساً بأسداس.

وتقول: الله يستر أن أحرم من رؤيته في هذا اليوم مثلما حدث في المرة السابقة وأعود كمن عاد بخفي حنين.

قالت نهلة: لا تذهبي بعيداً، قولي لي الآن، هل صحيح أنك تخافين من أكل العنب كما يتحدث الناس في القرية.

قالت أم علي: هم يتحدثون بهذا؟

قالت نهله: نعم، حدثيني ما القصة.

قالت أم علي: لا تجبريني فهذه قصه طويلة.

قالت نهلة: لا بد أن تخبريني الآن وأنا مصره بحكم الصداقة.

تأوهت أم علي وقالت: عندما...، ثم قاطعتها نهله قائلة: بعدين بعدين، انظري هاهم يدخلون القاعة.

قام الناس جميعا يلوحون بأيدهم، ووقفت أم علي على قدميها المرتجفتين، ورفعت يدها المرتعشة فألقت عليه التحية، فزاحمتها الدموع فسبقتها إليه كينبوع ماء فاض فهوى شلالاً من علٍ.

شعره الطويل الملبّد، عيونه الغائرة في قعر المحاجر، بسمته الضائعة بين تجاعيد وجهه، لباسه المتجعد وحذائه الممزق، تلك السلاسل اللئيمة التي أحكمت قبضتها على معصميه وكعبيه.

هذا المشهد الرهيب، أخرس لسانها إلا من همسات خالطها نحيب فضاعت بين صيحات وأصوات الآخرين التي جعلت القاعة للحظات تشبه سُوقاً وسط مدينه تسابقت فيه صيحات التجار لبيع بضائعهم.

بين هذا الزحام وتدافع موجات الأصوات حاولت أم علي أن تجد نفسها من جديد فتحدثه مثل الناس الذين يحدثون أبنائهم إلا أن الصمت المفاجئ الذي خيم على أجواء القاعة أجمها، فقلّبت عيونها في الحاضرين باحثة عن تفسير لهذا الصمت المخيف وما هذا الشيء الذي أخرس الألسن وهدَّ الهامات نخرّت هامدة على المقاعد.

نظرت إلى رفيقتها فأشارت إليها بيدها كي تجلس، ثم همست في أذنها إن القضاة دخلوا القاعة ويجب أن يصمت الجميع.

لحظات حتى ضرب القاضي "بشاكوشه" على الطاولة فأتبعها صيحة مزعجة "محكمة"، فوقف الجميع إلا الأسرى الذين يرون في هذه الوقفة إذلالاً لكبريائهم ومهانةً لكرامتهم (وكيف يقفون أمام قاضٍ في محكمة حكامها ظلمة محتلون مغتصبون) جاؤوا من خلف الحدود والبحار ليسلبوا أهل البلاد أرضهم وأوطانهم.

ما زالت صيحة القاضي بصداها تتردد في مسمع أم علي، التي أحست أن الفرصة للحديث معه قد ضاقت وضاعت منها.

فنظرت إليه متجاهلة كل من حولها ثم ألقت عليه التحية بكفّها المرتجفة، فأومأ إليها برأسه، همست إليه برمشيها، فردّ عليها بحركة ساحرة من شفتيه، فبدأت تنقل إليه أحوال البيت والأولاد بلغة العيون وهو يستقبل منها بلوعة الملهوف، حتى دخل القاضي ليفصل بينهم بصوته النشاز منادياً باسمه (محمد...قف).

وقف مثل عملاق قد تحرر من قيده بعدما استعذب لون الحب في عيون زوجه، فصار قوياً بعد ضعفٍ وشجاعاً من بعد خوف.

وقف أمام القضاة وعيونه تبرق بالأمل وقلبه مفعم بالحب، فأشرق وجهه رغم الشحوب، ـمما أثار حفيظة القاضي فاستشاط غضباً فألقى عليه حكمه الظالم، ـخمس سنوات عجاف خلف قضبان الأسر.

فلما سمع هذا الحكم الظالم صاح بصوته الهادر "الله اكبر" صيحة اهتزت لها أركان القاعة صيحةً أرعبت القضاة والجنود، ثم قال مرتلاً قوله تعالى "فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا".

التف من حوله الجنود ليقتادوه خارج القاعة نحو مصير الذي فُرض عليه فبدؤوا يسحبونه من السلاسل، تنظر إليها نظرة الوداع مصحوبة بوصية المحبين أن اتق الله واصبري واحتسبي واطلبي الستر من الله في الدنيا والآخرة.

كانت تسمع كلماته التي تزاحمها قرقعة السلاسل، وتراه يختفي عن عيونها بين كومة الجنود الذين تكالبوا عليه، وهي ما تزال تئن من هول الصدمة التي سقطت عليها عندما نطق النظام بقرار حكمه الجائر، "صدمة سقطت عليها كصخرة تربضُ على رأس جبل فحركها زلزال من تحت حجاب الأرض فتدحرجت ثم هوت حتى حطت في عين ماء، فظل صداها يخترق بطون الأودية والجبال حتى ذاب بعيداً في الأفاق ".

سمعت كلمات فأُشربتها حتى استقرت في أعماقها، ثم قامت تتهاوى من هول المصاب، فأخذت بيدها نهلة، وخرجتها من قاعة المحكمة عائدتين إلى القرية.

وعلى طول الطريق لم تفارق الدموع عيون أم على التي انعقد لسانها على كلمة "حسبنا الله ونعم الوكيل، حسبنا الله على الظالمين"، فظلت ترددها حتى نزلتا من السيارة أمام البيت، فأخذت بيدها رفيقتها، فما إن دخلتا ساحة البيت "الحوش" حتى صاح علي بصوته الحاد، أمي أمي، وركض إليها يستبق الأخبار عن والده فلم تجبه بشيء وردعته دموعها الهطالة عن الإلحاح وراح يبكي على بكائها مدركاً أن أمه لا يبكيها إلا أمرٌ جلل.

احتضنته "نهلة" ومسحت بيدها على رأسه ثم جلست مع الأولاد تنبؤهم الخبر وتركوا أم عليّ لشأنها.

استقبل الأولاد خبر والدهم بالدموع والنحيب، فتدافعوا جميعاً إلى غرفة والدتهم فطرقوا عليها الباب مراراً حتى فتحت

لهم فدخلوا عليها لتختلط الصرخات والدموع، حتى جفّت العيون واختنقت الأصوات خلف ستار السكون.

كانت نهلة قد غادرة البيت دون أن يشعروا بها، وهي آثرت أن تتركهم ينثرون الدموع ويلفظوا الأوجاع من أعماقهم دون رقيب.

استأذنت أم علي أولادها لتخلوا بنفسها بعدما شاركتهم الحزن لساعات فخرجوا عنها، فأغلقت بابها وأسرعت إلى فراشها لتخرج وديعتها التي رأت بين ثناياها أنسها، فبدأت تفك عقدها بلهفة، فسقط ما بداخلها على الأرض، فانكبت عليه تقبله، والدموع تتساقط من سفح وجنتيها، ثم قامت فمددت جسدها على السرير فذبلت عيناها فأسلمتها للنعاس وراحت تغط في نوم عميق تاركة الأقدار تدير عجلة الزمن كما تشاء وتحملها من شاطئ إلى شاطئ دون مشورة منه أو اعتراض.

تمر الأيام ثقيلة قاسية على أم علي والسنون تتلاحق يلفها الحزن والأسى، يُطلّ عليها ربيع يتربع على أنقاض شتاء عارٍ يتبعه

صيف متمرد بحرارة شمسه على أنقاض خريف مقهور لتكتمل الدائرة، وتدور الأرض دورتها وتمر بفصولها الأربعة من تحت أقدام أم علي وهي ثابتة صامدة على صخرة الأمل لا تتزحزح مهما تقلب الطقس في ثيابه الخضر التي نسجتها خضرة الربيع، أو ثيابه السوداء التي صبغتها غيوم الشتاء الحبلى بثلجها وبرودها ومطرها أو تلك الثياب الزرقاء التي امتصت صفاءها من زرقة سماء الصيف أو عندما يظهر الطقس عارياً من تحت ثياب خريفه الضبابية المخادعة.

هي صامدة محتسبة أمرها إلى الله، تشارك الناس أتراحهم وتعتذر عن أفراحهم إلا قليلاً، وعلى طول الأيام ترعى أولادها وتحرص على تربيتهم على سريرة والدهم وديانته وخلقه، لا تغفل عنهم طرفة عين حتى عندما كانت تتجدد معركتها كلما طلّت عليها عناقيد العنب، في كل عام كانت تحاول الانتظار لتظلّ الرفيقة المخلصة، العهد قطعته على نفسها حتى يعود إليها من غربته وعتمته مهما طال الزمان أو قصر، وكل ما تتمناه أن تنام ليلة فتستفيق في الصباح وإذا السنون الخمسة قد انقضت وأقبل عليها يضمها بحضنه

فينسيها آلامها وأحزانها، بعدما رفضت جلسة الحكم واقتيد أبو علي مخفوراً خلف الجنود وعادت هي إلى بيتها تلعن الظلم وأهله وتدعو الله أن يطوي هذه السنين سريعاً حتى تمر كلمح البصر، في هذه اللحظات كان الجنود قد ألقوه في زنزانته وسلاسل حقدهم لا تفارق معصميه ليلاً ولا نهاراً إلا قليلاً حسب الحاجة التي يقدرونها هم.

منذ ذلك اليوم الذي رآها فيه يوم المحكمة، جعل عتمة الزنازين وخلوتها سفينتهُ التي يرحل على متنها إلى عالم ذكرياته ويشق بشراعها أعماق الماضي.

كان يقبع بين أربعة جدران صمّاء خرساء، تبادله القهر والحرمات وإن شعر بداخلها بقليل من الأمان (المجبول) بالألم والأمل، كلما قرأ على صفحات جدرانها عبارات وكلمات كرّت عليها السنون، كان من خلالها يزداد يقيناً أن النفق المظلم مهما تعاظم طوله ومداه ومهما اشتدت عتمته لا بد من نور ينتشل المظلومين من أعماقه.

عاش بين جدران نقش عليها حكاية وطنه السليب وقصة غربته وصراعه مع جلاده وسجانه، حروف مبعثرة نقشتها على جدران لطالما تحسستها أيادٍ كسيره، واستندت عليها ظهور متعبة نازفة من سياط اللئام، حروف وكلمات كلما طاف عليها طائف استعدت معانيها وتنسّم الحنين المنبعث من بين تعرجاتها، فتنقله من بعد ضعف إلى قوة، ومن بعد انهيار وعذابات إلى صمود وثبات، ليرى السلاسل في يديه وقدميه أساور وأوسمة شرف يتقلدها كلمات رفعته من مقام الانحناء والركوع أمام جلاده إلى مقام البطولة والتحدي.

بطلاً لا يرى في سجّانه إلا قزماً سارقاً متعصباً يتخندق خلف بندقية لطالما عشقت الدم والموت وحتماً مصيره إلى زوال،وانتصارنا بعون الله.

كانت الأيام والشهور تمر عليه والألم يعتصر قلبه على أهله والأولاد الذين تركهم للدنيا وكروبها ولريب الدهر وتصريفه إلا أنه الواثق بعطف الله ورحمته الواسعة التي ستشملهم بإذن الله.

كانت الأيام تعبر به محطة إلى محطة وينقله السجان من زنزانة إلى زنزانة من سجن إلى سجن على طول الوطن السليب، حتى استقر به الحال في سجن نفحة الصحراوي الساكن بين تلال الرمال اللاهب المحاذية للحدود المصرية، وقد شيده الاحتلال الغاشم في عام 1980 في قلب صحراء النقب ليكون بعيداً عن البشر والشجر، حيث لا رقيب ولا عتيد وحيث لا تُسمع أنات وصرخات الأسرى، ولتختفي آهاتهم بين أمواج الرمال المتراكمة.

ظل أبو علي يرقد هناك مع رفاقه من الأسرى وكلما طال عليه الزمن داخل سجنه كان يقترب من يوم تحريره وفرجه، وظل على هذه الحال يملأ أيامه بالصلاة والدعاء وتلاوة القران وقراءة ما توفر له من كتب في مواضيع مختلفة وقد يمارس رياضة خفيفة إذا ما سمحت له من قبل السجّان.

حتى أقبل عليه الربيع الخامس يلقى عليه التحية بأعشابه وحشائشه الخضراء ونسائمه التي تحمل الأريج والأقحوان والأمل فتخلع أبواب زنزانته ليد القدر لتحطم كبرياء الجلاد وتبعثر حلقات القيد.

جاء اليوم الذي انتظره خمس سنوات فجاءه السجّان يخبره بالفَرَجْ، فتهللت أساريره واتسعت بسماته، قاده السجّان إلى خارج أسوار السجن ولما رأى نفسه وحيداً حراً طليقاً خارج أسوار السجن خرّ ساجداً شاكراً لله ثم احتضن بين كفيه حفنة من تراب فقبلها بشفاهه اليابسة.

حاول النظر إلى السماء التي غاب عنها سنين طويلة لكنه لم يقو على ذلك فقد منعته شمسها اللاهبة فوضع يديه فوق عينيه أمام حاجبيه حتى تساعده على النظر لكنّ أشعة الشمس كانت محرقة فاكتفى بنظرة خاطفة.

نهض ليقف على قدميه فنظر من حوله نظرة الغريب بين أهله وفي أحضان وطنه ورغم غصته من العذابات والألم على ضياع البلاد والعباد، كان لا بد من دمعة فرح على نعمة الله التي مَنّ بها عليه، فها هو من بعد عتمة الزنازين وقسوتها وأجراس السلاسل وقرقعتها، ها هو يحلق في سماء الحرية كعصفور ساعدته هشاشة أسلاك قفصه على الإفلات من حبسه فأطلق لجناحيه العنان فرفرفت في فضاء واسع لا ينتهي.

يلقي نظرة متفحصة على الأسوار العالية والأسلاك الشائكة المتشابكة وقناطر الحراسة التي تحيط بالسجن الذي ألقي فيه قسراً خمس سنين عجاف، ثم دار دورة كاملة حول نفسه وبصره يطوف الصحراء من حوله حتى ظن أنه في آخر الدنيا فبادرته هواجسه، كيف الخلاص من هذه الصحراء؟ وكيف لي أن أحدد الاتجاه الذي سأسير فيه؟ وكم هي المسافة التي يجب عليَّ قطعها حتى أصل قريتي؟.

وبينما هو على هذا الحال حتى وقفت أمامه سيارة جيب عسكرية (من وحدة حرس الحدود) تابعة لسجن (نفحة) فنزل أحد الجنود وطلب منه الصعود إلى السيارة.

خفق قلبه وقد أقنعته نفسه أنه يواجه عملية اعتقال جديدة فخرج عن طوق صبره فصاح في الجندي ماذا تريد؟ قبل خمس دقائق فقط خرجت من هذا السجن اللعين، وقد اكتويتَ بنار الغربة وحر السلاسل سنين طويلة، فمن أمرك باعتقالي مجدداً؟ مَنْ؟ قل لي، وما هو هذا الظلم الذي لم تعرفه البشرية من قبل ولم يسجل التاريخ شبيهاً له؟

تبسم الجندي ثم قال: لا تجزع لا أريد اعتقالك إنما ستصعد إلى السيارة حتى ننقلك خارج المناطق اليهودية حتى حاجز بلدة الظاهرية حيث لا يسمح لك أن تتنقل بين المستوطنات والمدن اليهودية ويجب نقلك إلى هناك.

سمع أبو علي الكلام فانفرجت أساريره وهدأت نفسه الثائرة، وقد حلت مشكلته في الخروج من هذه الصحراء والتي حسب لها ألف حساب.

صعد إلى الجيب، فانطلق به بسرعة فائقة يطوي الصحراء ويقطع المدن والبلدات اليهودية التي أقيمت على أطهر بقاع الأرض "بعد مكة."

تسير بهم سيارة الجيب وأبو علي ينظر من النافذة إلى السهول الفسيحة وكلما دخلت بهم السيارة مدينة أو قرية قال في نفسه: "هذه البلاد كلها كانت لنا يا الله!! كيف تركها الآباء والأجداد؟! كيف استطاع هذا العدو الجبان أن يهزم تلك الجيوش العربية مجتمعة في عام 1967 وهو اليوم لا يستطيع أن

يقف أمام أطفال الحجارة في انتفاضتهم؟ وكيف يمكن أن ينام عربي وقدس الأقداس يدنس بنعال المحتلين؟ يا الله على حال هذه الأمة التي فقدت شرفها وكرامتها ولقد صدق فيها الشاعر إذا يقول:

مررت على المروءة وهي تبكي... فقلت علام تنتحب الفتاة؟

فقالت كيف لا أبكي وأهلي ... جميعاً دون خلق الله مـاتوا

بينما أبو علي في حسرته وإشفاقه على وضع الأمة التي ينتمي إليها، وبينما هو في شروده، وقفت السيارة فجأة وطلب منه الجندي النزول.

فنظر أبو علي من النافذة فإذا بهم قد وصلوا حاجزاً عسكرياً على مدخل بلدة الظاهرية جنوب مدينة الخليل والتي كان قد بناها القائد الإسلامي الظاهر بيبرس الذي أعاد للأمة عزتها ومجدها.

نزل من سيارة الجيب وقطع الحاجز العسكري ولم ينتظر على جانب الشارع إلا قليلاً فقدمت سيارة تحمل لوحة ورقماً عربياً فأشار إليه بيده.

توقفت السيارة أمامه، فتقدم خطوتين وقال للسائق أريد أن تقلني إلى بيت كاحل وسأعطيك الأجر الذي تريد، ورضي السائق بهذا العرض فصعد أبو علي عتبة السيارة واستأثر بالمقعد الأمامي إلى جانب السائق ليمنح بصره حرية التمتع بالشجر والحجر والبشر على طول الطريق.

سارت بهم السيارة بالسرعة المسموح بها قانونياً فشعر أبو علي ببطء عجلاتها فطلب من السائق أن يزيد سرعته قليلاً، فقال السائق مبتسماً: "إن في العجلة الندامة وفي التأني السلامة".

أبو علي: أعلم هذا إلا أنني أتوق لرؤية الحبايب والأهل والأقارب.

السائق: أراك كنت غائبا عنهم طويلاً؟

أبو علي: لقد اختفيت عنهم قسراً خمس سنوات.

السائق: الحمد لله على سلامتك، "يا ما في الدنيا من عجائب وأحوال".

أبو علي: سلمك الله، لكنني كنت في السجن.

السائق: هذا ما تشاهده عيوني فقد اعتدت على نقل الكثيرين من هذا الحاجز.

أبو علي: إذن أنت تعلم مدى شوقي ولهفتي، فاضغط قليلاً على كابس البنزين.

السائق: خير لك أن تصل بالسلامة بعد هذا الغياب الطويل ويكفيك عبرة قول الشاعر"قد يدرك المتأني بعض حاجته".

فصمت دون أن يقتنع فقد اعتاد التأني والتروي في كل شيء ولكنه اليوم يترك لشوقه الجامح أن يسيطر عليه، فهو يسابق عجلات السيارة وودَّ لو أن الله أبدله جناحي طائر حتى يطير في جو لا يعرف قيوداً ولا حدوداً، ولا تحكمه إشارات مرور أو قبعة شرطي يقف منتصباً على مفرق في منتصف الشارع تحت

حجة تنظيم السير وهو المسئول الأول عن بعض الحوادث إن لم يكن كلها.

لم يكن صمته المطبق هادئاً، بل أجج ثورةً وبركاناً من الهواجس والأسئلة بداخله، فكلما اقتربت به السيارة قليلاً من القرية كانت تهاجمه هذه الهواجس فيحاول طردها أو الهروب من الإجابة عليها، لا يريد أي شيء ينغص عليه هذه الفرحة التي سيطرت عليه ولا يريد لشيء أن يلهيه عن فكره الذي سبقه حتى يحط في أحضان زوجته وبين الديار، فَضّلَ البقاء صامتاً غارقاً في خياله وكل ما يرجوه من الله أن لا تفاجئه الأقدار بما يكره، فتسلبه الفرح الذي لم يكتمل بعد.

اقتربت به السيارة من مشارف القرية فأرسل بصره ليغازل بيوتها وأشجارها وأحجارها وهو يتقد شوقاً للحظة التي ستحط بها قدمه على ترابها المفروش بلون الحرير الخمري.

فما إن وصلت السيارة مدخل القرية من الجهة الشرقية الشمالية حتى انتابته قشعريرة كمن لفحته قطعة برد عابرة.

دخل القرية فإذا بيوتها الطينية المتواضعة لم تتغير عدا بعض النباتات والدور الحجرية المتناثرة على مسافات واسعة من صفحة القرية.

ظلت تسير به السيارة حتى صار على مرمى حجر من بيته الذي هجره قسراً منذ سنين فأحس بدفئه يلفح وجهه فاجتاحت قلبه موجة شوق عجيبة حتى كاد يصرخ بأعلى صوته من تأثيرها، كاد يصرخ نداءً على حبيبته ورفيقة دربه، منادياً على أبنائه وبناته الذين تركهم رغم أنفه فأصبحوا أساري القهر والحرمان.

عندما وصل قبالة البيت أشار للسائق أن يتوقف ثم وضع يده على كتفه وقال: "الله يعطيك العافية" انتظرني حتى آتيك بالإيجار.

السائق: سهّل الله أمرك، والحمد لله على سلامتك، لا أريد منك أي إيجار.

أبو علي: هذا حقك ولا يجوز، انتظر دقيقة واحدة.

السائق: هذا أقل الواجب اصنعه من أجل الذين يدفعون أعمارهم ضريبة لهذا الوطن، فاذهب لأهلك وأجري على الله.

أبو علي: جزاك الله عنا كل خير، لكن تفضل لشرب فنجان من القهوة وشرفنا بضيافتك.

السائق: الآن الأهل مشتاقون وهم بانتظارك واعتبرني قد شربت القهوة، مشكوراً، وأدار عجلات السيارة ثم لوّح بيده ملقياً التحية.

تقدم خطوات نحو البيت فإذا بها منتصبة أمامه حورية في ثوب عفافها، حاول التقدم فلم يستطع، فقد تسمرت قدماه في الأرض كأنهما بنيتا فيها وغادرت جذورهما بعيداً في أعماقها وحاول النداء باسمها فتلعثم لسانه ثم انعقد فسكت، فراح يتساءل هامساً، أهو الحلم تجلى في عين الحقيقة؟ ثم يجيب قائلاً: لا لا، إنها الحقيقة عينها، إنها هي فلا شبيه لها في هذا الوجود، حتى صورتها كانت لا ترقى إلى حقيقتها وجوهرها، ولو تناولتها ريشة فنان بارع لما جسّدتها على لوحة كما تجلّت في صنعتها يد الخالق،

سبحان الذي سواها وفي أحسن صورة جلّاها، إنها هي "عَلْيا" حورية ملائكية كما عهدتها وعلى الحال الذي تركتها، لم تغيرها السنون العجاف وأيامها، ولم تنل منها بنات الدهر وريبه.

ظل يخاطب نفسه همساً والبسمات تتسلل من طرفٍ فيه وهي واقفة منه على بعد لمسه، أرسلت عيونها تعبث بعيونه وشعره وتضاريس وجهه وأطرافه، ثم تقدمت خطوة فمدت يدها فتناولها براحتيه، فلم تتمالك جسدها فألقت به بين ذراعيه فارتعدت الأبدان واهتزت طرباً وفرحاً، ولم تنطق الألسن ببنت شفة ليبقى الحديث للعيون الباسمة، وزاد حديثها جمالاً أنها اكتحلت بدموع صادقة وفيّة، هطلت الدموع على الوجنات فأوقفها تسابق الأولاد إليه وهمسات الجيران والناس الذين تقاطروا عليه فالتفوا من حوله كأنه على موعد معهم.

أخذت بيده وعلي متعلق برقبته والأولاد كل أمسك بطرفٍ من قميصه والناس والأقارب والجيران يتبعونه حتى دخل البيت كلهم جاءوا يرحبون ويباركون هذه الفرحة التي حلت

على هذا البيت الذي عانى الصعاب والآلام حتى باضت على سقفه آهات الحرمان وفرّخت.

هلت الفرحة بعد هذا الصبر الطويل لتمحو ركام خمس سنين من العناء والتعب.

جلس الجميع في غرفة الضيوف فبدأت الأسئلة تنهال عليه من كل فم، فآثر أن يقص عليهم قصته منذ اليوم الذي اعتقل فيه مروراً بأيام التحقيق القاسية وتنقلاته بين باستيلات الأسر المتواجدة على أكثر من أربعة وعشرين بقعة من بقاع الوطن المحتل.

يقص عليهم حكايات وبطولات الكثيرين من أبناء شعبه الذين أمضوا عقوداً خلف القضبان ولا زالوا ينتظرون فرجاً من عند الله.

يحكي لهم شارحاً ومبيناً قسوة السجان والمعاملة الوحشية التي يمارسها المحتل على أسرى هذا الوطن السليب، ويحدثهم عن الكثيرين ممن وقعوا في شباك المحتل فأحالهم إلى عملاء خونة

بعدما كانوا أبطالاً ثائرين ويحدثهم عن غرف العملاء التي أطلق عليها الأسرى "غرف العار، وغرف العصافير بمعنى أنهم "طيروا" من الصف الوطني وعششوا بعيداً هناك في أحضان المحتل يتغذون الذلة والمهانة ويلبسون ثياب الخزي والعار" "وكان عبد الحميد الرجوب من بلدة دورا قضاء الخليل النواة الأولى في تأسيس هذه الغرف"، وهو من جواسيس وعملاء هذا الوطن الأوائل الذين تسابقوا للغوص في مستنقع الخيانة والجاسوسية وذلك في سنوات السبعينات من القرن العشرين.

يحدثهم أصبحت هذه الغرفة نفاً يسقط فيه كل ضعيف غافل وثرثار لا يستطيع ضبط لسانه وصونه عن إفشاء الأسرار.

يحدثهم لعل كلمة تلامس أذناً مصغية فتبقى لها عبرة وذخراً لما تخبئه الأقدار لكل حر في هذه الديار المغتصبة.

كان مسترسلاً منطلقاً في حديثه وهي تنظر إلى ساعتها معلنة الاحتجاج، فقد أطال الضيوف زيارتهم، وهي تريد الانفراد بزوجها الذي انتظر طويلاً وهي تتقلب على جمر الحرمان،

فما بال الناس لا يملون، وما بالهم يتغافلون ويتعامون عن عيونها التي ما فتئت تراقب ساعتها من تحت حجاب الحياء، فهي عاجزة ولا يمكن لها أن تتصرف بهستيريا الحب وعمى الشوق فتطلب منهم الانصراف، فقد لجمت أنانيتها للاستئثار به لنفسها وأقنعت نفسها، بأن للأقارب والجيران والأصدقاء حق أن يستقبلوه ويتشرفوا بضيافته رغم أنها هي التي كوتها نار الغربة والهجران، وهي وحدها التي باتت تعد النجوم في ليالي الصيف وتراقب رقصات حبات البرد من خلف نافذتها في ليالي الشتاء الهوجاء وهي التي طاردتها عناقيد العنب أينما ولت وجهها على مدى خمس سنين مضت، فلا بد أن تخلو به لتشبع لهفتها من بريق عينيه، وتطفئ نار شوقها بأنفاسه الزكية، لكنها آثرت التحلي بالصبر حتى انفض الجميع، وخلت الدار من كل غريب، فألقت رأسها على صدره غير آبهة بالعيون البريئة التي تراقبهم وهمسات الصغار المفضوحة، فما يثنيها عن هذا شيء، كيف؟ وهي انتظرت لحظة دفء تنسيها برد السنين اللاسع.. تلقي رأسها على صدره غير مكترثة بمن حولها وكل ما يعنيها أن تسمع نبضات قلبه تناديها

من تحت عباءة الحب الذي عاد إليها بعد الشرود والغياب في زمن الظلم والانكسار.

يهمها فقط الارتماء في أحضانه هذا الجسد المجاهد الصامد على المصاب والثابت على المبادئ وحب الأوطان، رفضاً للاستسلام والخنوع للمحتل، غضب لا يعرف سوى لغة القتل والدم، ولا يعرف أي معنى من معاني الإنسانية ولا أي لون من ألون الجمال في الحياة.

لم تنسها الفرحة القيام بالواجب تجاهه، فاستأذنته لبعض الوقت ليبقى مع الأولاد، ثم ذهبت تعد له الماء ليغتسل من غبار الغربة وينفض عن كاهله رائحة السجن والقيد ولتعد له وجبة الضيافة التي جمعت عليها من كل صنف ولون.

بعد دقائق عادت إليه فأخبرته أن الماء للاغتسال قد أصبح جاهزاً، فاستأذن الأبناء، ليعود إليهم بعدما أنهي الاغتسال وتبديل ملابسه.

اجتمع الجميع عند وصول المائدة التي حوت كل شهي فبدأ الأولاد جميعاً يسابقونها، كل يريد أن يضع في فمه لوناً من ألوان الطعام، وقد أخذتها الغيرة من أبنائها وخاصة علي الذي تمادى كثيراً في هذا الفعل ولولا أن تتهم بالجهل وصغر العقل من قبله للطمت علياً على يده التي ما فتئت تعبث بشفاه أبيه وتروح وتجئ على صفحة وجهه.

لكنها صبرت على فعل أبنائها صبر علي بن أبي طالب على سواك فاطمة بنت رسول الله عليه السلام عندما قال علي:

حظيت يا عود الأراكِ بثغرها ... أما خفت يا عود الأراك أراكَ

لو كنت من أهل القتال قتلتك... ما فاز مني يا سِواكُ سِواكَ

تبادلت الأيادي على فمه تدفع اللقمات فخافت أن يصيبوه بالتخمة فطلبت من ابنتها "تحرير" رفع المائدة وهي تقول يكفي

يكفي، سنين لم يأكل هذا الطعام، فلا أريد أن تضايقوه، ارفعوا الطعام، ارفعوه كفى.

انهمكت تحرير برفع المائدة وانتقل الجميع للجلوس على الأرض التي فرشت بفراش عربي، فرشات وأرائك محشوة بالصفوف والقطن، جلسوا يحيطون به وهي تقلب نظرها في وجهه المتعرج الذي يشع منه نور له وهج يشد وهج سراج الزيت.

أخيرا اجتمعت العائلة من حوله وحديثهم همسات العيون وحركاتهم رجفات القلوب، فالفرحة به أخرست الألسن فلا تسمع إلا همسات ولا ترى إلا سهام العيون المتشابكة.

من تحت ظلال الصمت تقف أم علي فجأة لتتوجه نحو المطبخ مسرعة فما لبثت أن غابت عن عينيه حتى عادت بين يديها "طبقاً" من الفواكه التي تلذ وتطيب النفس إليها يتوسطها قطف من العنب متعالياً بنضارة حباته ولمعانها الذي جلب الأنظار واستدرج شهوه الحاضرين.

قربت منه الطبق، ثم جلست إلى جانبه، وقد تناول الأولاد كل ما اشتهت نفسه ثم انسحبوا استجابة لسلطان النوم الذي ناداهم من خلف الجفون إلا علياً الذي حارب نعاسه كي لا يفسد عليه فرصته فيبقى ملتصقاً تحت جناح والده.

بهذه الصورة أصبحت الساحة شبه خالية، فهي لا تكترث كثيراً بوجود علي الذي اقترب من سن الحلم لكن يبقى صغيراً في نظرها وتستطيع أن تختلس قبله نظرة دون أن يلحظها.

بالفعل تجاهلت وجوده فمدت يدها إلى طبق الفواكه فأمسكت حبة تفاح وبعدما رفعتها أعادتها بشكل يلفت الأنظار ويعير الانتباه، فقد تذكرت أمراً ولقد نادتها روحها من خلف حجاب... أم علي قدمي خصلة من العنب وضعي في فمه حبة منها.

تعجبت من هذا الإيحاء الذي يناديها، وكيف لها أن تضع هذا وهي التي لا تقوى على مجرد النظر والتدقيق في هذا العنقود فكيف لها أن تلمسه بيدها!! وكيف ما زال قائماً بينها وبين هذه

العناقيد؟ وبعد هذا التردد السريع اتخذت قراراً شجاعاً، فمدت يدها نحو قطف العنب لكن بحذر.

غامرت من أجله فأرسلت يدها تسبقها أصابعها بارزة كبراثن طير جارح هوى من علٍ يختطف فريسته قبل أن تختفي بين الحشائش، أو تغيب بين شقوق الأرض.

انقضت أصابعها على عنقود العنب وهي تغمض عينها وتكتم أنفاسها، فاقتطعت خصلة منه لم تحس بأي حرارة أو سخونة تنبعث منها، فكأن وجوده أخمد تلك النار المتوقدة التي عهدتها في هذا العنب على مدار خمس سنين.

شعرت وكأن حبات العنب تحولت إلى حبات بَرَد تحاول الإفلات من دفء أصابعها، أهي معجزة أم أنها حقيقة هذه الحبات فهي باردة في شتائها دافئة في صيفها، وأنا التي كنت أراها دوماً جمراً ملتهباً، على أية حال ومهما كان الأمر المهم أنني أستطيع أن أمسكها بيدي حتى أطعمه من بين أصابعي.

اقتربت أصابعها من شفتيه الشاحبتين تحمل على رأسها حبة عنب كأنها لؤلؤة مشعة، فوضعتها في فمه ثم أرادت أن تمرر أصابعها على شفاهه اليابسة المتشققة لتعيد إليها الحياة، بعدما فقدتها بين جدران الزنازين وخلف أسوار السجن إلا أن ذاك الشقي الصغير "علي" كان لها بالمرصاد ولم يترك للمشاعر أن تختلط تحت جناح غفلة، فهاج في خلدها: أما آن لهذه العنيد أن يفهم أنه غير مرغوب به الآن وعليه أن يحلق بإخوته مصروفاً إلى عشه تاركاً خلفه ساحة الحب لفرسانها.

أما علي فما كان يعنيه ما يدور في خلد أمه وما تعنيه هذه النظرات القاسية التي تطارده منها، فقد كان قد حيّره أمر واحد على مدار خمس سنين، وعليه اليوم فهمه، أرضيت أمه أم أبت، وكيف أصبحت اليوم وفجأة قادرة علي لمس حبات العنب؟؟.

وهنا وبالرغم من انحداره من سن الطفولة ومشارفته علي سن الفتوه والحُلم إلا أنه لم تفارقه براءة الأطفال، فيفلت من قوس براءته سهم يصيب مقلة أمه، فيفقدها توازنها عندما صرخ

بصوته الناعم قائلاً: "آ آ كيف تمسكين العنب بيدك؟ ولماذا تطعمين أبي؟".

فصارت تهمس وتدحضه بحواجبها حتى لا يكمل حديثه ويبقي سرها دفيناً في بئرها العميق.

لكن علي لم يفهم لغة حواجبها أو أنه تجاهلها عمداً ولم يكترث بتلك العقد الغاضبة التي علت جبهتها، فتابع قائلاً بصفاقة: "ها، آ، عندما كنت أطلب أن تقطعي لي قطف عنب أو حتى لما كنت أريد أن أضع في فمك حبة....وقبل أن ينهي مدت قدميها فداست علي طرف قدمه ليبلع لسانه، فسكت بعدما تأوه خفيه لكن أبا علي انتبه لما يجري فرآها وتعابير وجهها تتغير ألوانها مع كل كلمة ينطق بها صغيرهما.

فقرب علي تحت جناحه وراح يمسح بيده الخشنة على شعره ويطلب منه أن يكمل حديثه ليفهم ماذا قصد من خطابه لأمه.

شعر علي بالأمان بظل والده فانطلق لسانه يروي حكايته مع أمه والسر الذي لم يفهمه طوال السنين التي غاب فيها والده عن البيت، فبدأ قائلاً: "بعدما اعتقلك الجيش أمي ما أكلت العنب ولما كانت تراني وإخوتي نأكل العنب كانت تهرب إلى غرفتها، ومرة شفتها من شق الباب فتحت الخزانة وأخذت قميصك الأسود وضمته إلى صدرها وكانت تقبله وتبكي، وكانت تُخرج من الخزانة لفة من القماش وتفتحها وتأخذ شيء صغير منها تضعه على فمها ودموعها تسيل على خدودها.

كان علي يُسهب في كلامه وهي تحاول أن تخفي عيونها المنزعجة خلف ملاءة الحياء، وحاولت أن تصم أذنيها فلا تستمع لكلامه لكن صوته كان يخترق كل الحواجز ويقتحم أعماقها دون أن يبالي ودون أن يعلم أنه يحشر نفسه فيما لا يعنيه ويتعدى على خصوصياتها، وكم تمنت من الله أن يخرسه ولو لليلة واحدة.

فما كاد علي ينهي كلامه حتى انتفض أبو علي، وبهدوء تام طلب من صغيره أن يذهب إلى فراشه فقد انتصف الليل.

قام علي مرغماً فخرج ثم أغلق الباب خلفه.

أبو علي والذي بدا عليه الاستغراب من فعل زوجته وخاصة تلك القصة مع عناقيد العنب، كان استغرابه كبيراً رغم معرفته التامة لمشاعر زوجته تجاهه وحبها المقدس له، وروحها التواقة لرؤيته من جديد يملأ أركان البيت أمناً وفرحاً.

لكنه يعرف حبها الشديد للعنب فلم يعهدها يوماً كارهة له لهذه الدرجة التي يتحدث بها علي.

فبادرها سائلاً: ما الأمر يا حبيبتي؟

أربكها سؤاله، فهربت بعيونها، ورددّت قائلة: ها.. لا، لا يوجد أي قصة فهذا علي، أنت أعرف به مني، منذ طفولته ثرثار ولا يقرّ له قرار، وبالرغم من طوله اليافع يظل طفلاً.

قال: أنا الذي أعرفك تماماً يا حبيبتي، فما الأمر؟

ترددّت قليلاً ثم تأوهت ومن ثم أطلقت نفحة من أعماق أعماقها، ورويداً رويداً، هدأت وذهب التوتر عنها وبدأت تحكي

حكايتها وهو يتهاوى بين ذراعها، مطبقاً فمه، حابساً أنفاسه حتى لا تعيق همساتها الدافئة التي ملأت أجواء البيت.

قصت عليه قصتها منذ اللحظة التي أُعتقل فيها على يد جيش الاحتلال الإسرائيلي، وكيف أخذت على نفسها عهداً ألا تأكل العنب مهما طال الزمن أو قصر حتى يعود إليها زوجها وحبيبها، وروت له كيف تحولت هذه العناقيد إلى عدو لدود يتربص بها بحرارته على مدار سنواته الخمس التي قضاها في السجن حتى هذا اليوم، وقد تفاجئه من جرأتها وهي تمسك خصلة عنب تقدمها له دون أن تحرقها، فكان الشفاء على يديه.

لقد زاده حديثها استغراباً وإعجاباً وآثر الإنصات حتى تنهى حديثهما فقد تابعت قائلة:

أم أنك أردت أن أسمح لنفسي أن تتمتع بشيء وأنت لا تناله ولا يصل إليك وأنت في جوف العتمة تتقلب على حصى الحرمان.

لا يا حبيبي ليس هي أنا التي تُقْدِم على فعل قد يخدش وفاءها، ولا أراه عدلاً أن أصنع هذا ونحن شركاء درب في هذه الحياة، رسمناه بأحلامنا، وعبدناه بآهاتنا، فلا أستطيع العيش لحظة دون أن أشارك عناءً ابتليت به، وأكون معك بقلب لم ينسك أبداً ودوماً بحثت عنك في دياجير الليالي، ولطالما صاحبتها النجوم في رحلتها طوال الليالي، أما تلك القماشة فحكايتها مختلفة تماماً، وما قيمتها إلا أنها احتضنت صورتك الجميلة التي كنت أفر إليها كلما ضاقت على الدنيا، وآنس بها كلما هبت علي رياح الذكريات، فكنت أجد نفسي بجوارك وبين ذراعيك وكلما قبّلْتُ صورتك كنت أرتشف جرعة من صبر تزيدني عزماً وثباتاً وجلداً على مصابي، وعندما كنت أنظر في عينيك كنت أقرأ وصاياك لي، بالصبر والستر والتقى فاحتمي من وساوس الشيطان التي كانت تراودني كلما تدحرجت الأيام وتوالت الشهور والسنين، نعم لقد كنت حاضراً متربعاً في سويداء القلب على الدوام يا حبيبي.

كانت تحكي حكايتها وهو يسمع في خشوع، هاجعاً في محراب وفائها، ويستمع إلى حكايتها وكأنها صاغتها الأيام الخوالي لتبقى آيات تتلى على مدار الأزمان والدهور.

أفاق من خشوعه وحدقت عيناه بها والدموع تتدافع من محاجرها، وهو يحاول حبسها، وتقييدها بسلاسل رموشه، لكنها كانت الأقوى فحطمت جبروته لتتدحرج على تضاريس وجنتيه التي تكسوها شعرات يابسة بلونيها الأبيض والأسود، هطلت دموعه رقراقة لتغسل غبار الماضي المشئوم.

لم تستطع هي تحمل رؤية عيونه تبكي فمدّت راحتيها تتلقف دموعه الزكية، فهي غالية عليها، وهي أغلى عندها من كل شيء في هذا الوجود، هي الدّر المقدس الذي يجب أن يبقى مخفياً ستائر الجفون، ولن تسمح أن يتحطم على بساط الأرض المداس.

تمسح بيدها دموعه وتقول: لا تبكي يا حبيبي، لا تبكي فدموعك تذيب الفولاذ والحديد، وأنّى لقلبي الهش الكسير الصبر على ذلك، فلا تكويه بحرها حتى يظل خزينة لحبك الأبدي.

ومن بين راحتيها انحدرت دمعة من دموعه فهوت فاصطدمت بالأرض فأرادت جمع شظاياها المتطايرة وهي تلوم نفسها وتعاقب راحتيها المرتجفتين على غفلتها، لكنه حبس لسانه براحته وأطلق للأخرى لتبحر في جداول شعرها الليلي المسدول على أكتافها كأنه عباءة تظللها كلما لامستها نسائم الحب رقصت على جسدها.

ثم قال: حبيبتي.. اتركي دمعتي تخرج من محجرها لتروي شجرة الوفاء التي غرستيها بإخلاصك في حرم هذا البيت، دعيها أيتها الطاهرة الزكية، دعيها فلا أغلى وأحب منك إلي.

تركها تجلس على فراشها وقام فجلس على كرسي خشبي بأربعة قوائم، صنع من خشب البلوط، وتشابك سقفه من أعشاب يابسة نسجتها أمه العجوز.

جلس على كرسيه وهو يردد، آه يا حبيبي، خمس سنوات وأنت لا تأكلين العنب، آه عليك،

فقامت إليه فطوقته بذراعيها وأخفت نصف وجهها بين شعر رأسه وهي تقول: لا عليك يا تاج راسي فما كان لي أن أستطعم وأتمتع بشيء دونك. وقد استعنت بالله على ذلك، فهو الذي ألهمني الصبر وأغناني على تقلبات الأيام وفواجعها، فهو خير معين وخير صاحب في هذه الدنيا، فقد أدام علينا ستره وكفانا شرار خلقه، والكفاف من الناس، وها هي الأيام المريرة، انقضت وانقضى حالها وكأن شيئاً لم يحدث، ويكفينا إشراقه وجهك التي أضاءت ربوعنا وأنفاسك الزكية الطيبة التي غمرتنا بالفرح وأعادت إلينا الحياة بعدما لفتها أكفان الغياب "وبعدين يا حبيبي، العمر إلك إن شاء الله بنعيش وناكل عنب حتى نشبع".

يسمع منصتاً والحيرة تجلله ويتساءل مع نفسه كيف يمر على حكايتها كمن استظل بظل شجرة صادفته في فلاة أيام ترحاله أم يقف أمامها وقوف المتأمل المدقق عند كل مفردة من مفردات حكايتها.

ولما دغدغه كلامها أرسل بصره ليتحسس قسمات وجهها فرآه لوحة فنية قد رسمها بديع صنع الإله فأبدعتها، ولونتها بألوان الوفاء والإخلاص وملأت مساماتها مسكاً وعنبراً ورفعتها إلى المقام السامي والمكانة المقدسة.

فقام إليها فضمها بين ذراعيه ولها نحيب يطرق سمعه ويهزّ قلبه الذي تفتحت أبوابه تستقبله بعدما هجرها قسراً روحاً من الزمن، فمرر أصابعه المتخشبة على جسمها لتنهل من بحر العشق المنسي.